37 سلسلة الدروس الثقافيّة

مواعظُ شافية



مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



مواعظٌ شافية

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب: مواعظُ شافية

تأليف: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الأولى - آب ٢٠١٢ م - شوال ١٤٣٣ هـ

مركز نون للتأليف والترجمة

مواعظٌ شافية



مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمّد بن عبد اللّه وعلى آله الطيّبين وأصحابه المنتجبين.

انطلاقاً من قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ يسعى مركز نون للتأليف والترجمة أن يضع بين يدي أهله وأحبّته بعض المواعظ الأخلاقيّة تذكيراً بأهمّ المشاكل الّتي تواجه المجتمع والفرد والّتي تكون عائقاً عن الوصول إلى رضا اللّه سبحانه، وتعتبر كلمات أهل البيت عليهم السلام بعد كلام اللّه سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أهمّ المواعظ والعِبَر الّتي يمكن الاستفادة منها في تهذيب النفس وفي صيانة المجتمع، ونجد في كلام أهل البيت عليهم السلام ما هو شاف لما في الصدور كما يقول أمير الكلام الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَآرَاءً عَازِمَةً، وَأَلْبَاباً حَازِمَةً... فاتّقُوا اللّه تقيَّةَ ذي لُبٍّ شغل التّفَكُّرُ قلْبَه**»(١).

ولا يبقى على الإنسان إلّا أن ينظر بعين البصيرة ليعمل لآخرته ودنياه بما يرضي اللّه سبحانه.

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص١٣٧.

وحيث إنّ الحاجات الإنسانيّة كثيرة والمشاكل الّتي يعاني منها الإنسان كذلك، كان لا بدّ من تناول بعض هذه المشاكل بالدراسة والوعظ، فكانت هذه المواعظ المتنوّعة، اخترنا لها من كلام الأمير عليه السلام هذا العنوان «**مواعظ شافية**» عسى أن ندفع بها المرض عن القلوب وتكون شفاءً لما في الصدور، ونسأل الله سبحانه أن يتقبّلها منّا، ويعيننا للعمل بها، إنّه نعم المولى ونعم المعين.

مركز نون للتأليف والترجمة

1

الاختبار الإلهيّ

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾[1]

(١) سورة هود، الآية: ٧.

تمهيد

عندمـا خلق اللّه تعالى الإنسـان، قضت المشيئة الإلهيّة أن تكون له حياتان، حياة الدنيا، وحياة الآخرة. ففيما يتعلّق بالحياة الآخرة، شاء اللّه سبحانه وتعالى أن تكون هي الحياة الحقيقية، ولذلك أعطاها صفة الخلود، فهي حياة أبدية، لا موت فيها ولا زوال.

ولأنّهـا الحياة الحقيقيّـة، السرمديّة والواقعيّـة، فإنّ كلّ الحقائـق ستظهر فيها ، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[١] ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢] .

دار الجزاء

جعل اللّه سبحانه وتعالى العنوان الرئيس للحيـاة الآخرة «**دار الجزاء**» بمعنى أنّ كلّ إنسـان بـدون أيّ استثنـاء سيلاقي جـزاءَ عمله في الحياة الآخـرة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٣] .

(١) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

وكلّ ما ذكر في أحداث ما بعد الموت إلى القيامة، هو مقدّمة لحصول الجزاء الأخروي: سؤال منكر ونكير، النفخ في الصور، الحشر، وكتب الأعمال الّتي تُعطى للناس: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾[١] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾[٢]، الميزان: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٣]، الشفاعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٤]. كلّ هذه الأحداث والأسماء هي في الحقيقة مقدّمة للجزاء (أي للثواب والعقاب).

ويستقرّ المشهد بعد انتهاء الحساب وسلوك الناس الصراط، فريق في الجنّة وفريق في السعير.

دار الفناء

وهي الدنيا والحياة الأولى الّتي تسبق حياة الآخرة، ولكنّها حياة قصيرة ومحدودة مقارنة بها وسُمّيت بالعاجلة في مقابل الآخرة (الآجلة). وقد وجدت لأجل محدّد لسبب دورها الّذي يقترن بالإعداد والتجهّز لعالم الآخرة. وعندما ينتهي أجل المرء فيها تبدأ أحداث الآخرة.

إذاً هذا النظام الكوني يتّجه إلى نهاية، لأنّ لعالم الآخرة كوناً مختلفاً ونظاماً جديداً، ومعايير أخرى. أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون الدنيا دار العمل كما أنّ الآخرة دار الجزاء، ومع ذلك لا يعني هذا أنّه لا يوجد جزاء دنيويّ، ولكن حتّى الجزاء الدنيوي هو زائل فانٍ، وليس بشيء أمام الجزاء الحقيقي في الآخرة.

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٩.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

واللّه سبحانه وتعالى أقام علاقات بين العمل وبين الجزاء، في الدنيا وفي الآخرة. الجـزاء هو نتيجة عمل الإنسان وذلك حتّى يحصل الإنســان على جنّته، وعلى نعيمه وكرامته.

ولكنَّ ذلك يحتاج إلى جهاد، وعمل، وصبر، وتضحيات. هذه مشيئة اللّه سبحانه وتعالــى، وهذه ميزة الإنسان الّــذي أراد اللّه تعالى له أن يحصل على مقام الخلافة، والأمانة، والكرامة، والقرب من اللّه عزّ وجلّ.

يقــول تعالــى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

ويقــول سبحانــه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٢].

ويقــول عزّ من قائــل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣].

الدنيا هي دار العمل، دار الاختبار، هي دار الامتحان، أو هي دار البلاء والابتلاء، وهناك ثلاث آيات كريمة تضيء على هذا الموضوع:

يقول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾[٤]. أي ليختبركم في هذه الحياة الدنيا.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) سورة هود، الآية: ٧.

(٥) سورة الملك، الآية: ٢.

وفـي آية ثالثة قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ لماذا؟ يقول الله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(١). ويقـول تعالـى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾(٢). بمعنـى أنّ كلّ هذه الأرض فانية. وهنـا الله تعالى يبلونا ليرى أيّنا أحسن عمـلاً، لأنّه فيما بعد هناك جزاء وحساب، لنكون أهلاً للثواب بجدارة، أو مستحقّين للعقاب وليس لنا حجّة على الله عندما يُعاقبنا بذنوبنا أو بسوء أعمالنا.

البلاء بالخير والشرّ

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

عنـوان البلاء عامّ وهو بمعنـى الاختبار والامتحـان. والله سبحانه وتعالى يختبر عبـاده بالنعم، والخير، وأيضاً يختبرهم بالمصائب والمِحن أي «بالنعم والنقم». في التعبيـر القرآنـي الخير بلاء والشرّ بـلاء. ولكن، نتيجة الفَهـم العرفي لكلمة «بلاء» يذهـب الذّهـن مباشرة إلـى المصائب، حيث إنّها مـن نوع البـلاء الظاهر الّذي لا ينكره أحد، أمّا البلاء بالنعم والّذي قد يكون أشدّ مصيبة على الإنسان، بل قد يكون نقمـة أكبـر عليه فهو البـلاء الخفيّ الّذي قد يغتـرّ فيه الإنسان فيظـنّ أنّه في موقع الرضا الإلهيّ والحال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(٣).

ويقـول سبحانـه وتعالـى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾(٤). فهنـا مصداق الابتلاء الإلهي بالإكـرام والإنعام، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾(٥) «قَدَر» أي «ضيّق» وهنا بتضييق العيش وحبس الأرزاق.

(١) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٤) سورة الفجر، الآية: ١٥.
(٥) سورة الفجر، الآية: ١٦.

فالنعـم والنقـم وجهان للبلاء، وعلى الإنسان أن يعـرف كيف يشكر النعم، وكيف يصبـر علـى النقم. بل عليه أن يكون فطناً لحاله عارفـاً لمآله متأمّلا في علاقته مع ربّـه، حذراً عند النعم شكوراً عند المصائب، فقـد جاء عن الإمام عليّ عليه السلام: «**إذا رأيت ربّك يوالي عليك البلاء فاشكره، وإذا رأيته يتابع عليك النعم فاحذره**»[١].

الاختبار الإلهيّ

في الاختبار الإلهيّ هناك مجموعة أمور عامّة لا بدّ من الالتفات إليها:

أوّلاً: إنّ هـذا الاختبار والامتحـان هو قانون إلهيّ شامل لـكلّ الناس. كلّ إنسان بلـغ سنّ التكليـف، هو موضع اختبـار وابتلاء، لأنّ هـذه إرادة الله في الخلق. حتّـى أنبياء الله تعرّضوا للاختبـارات والابتلاءات، بل كانوا أشدّ الناس بلاءً، وقـد ذكـر عند أبي عبـد الله الصادق عليه السلام البلاء وما يخصّ الله عزّ وجلّ بـه المؤمن، فقال: «**سُئل رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أشـدّ الناس بـلاءً في الدنيا فقـال: النبيّـون ثـمّ الأمثـل فالأمثل، ويبتلـى المؤمن بعد على قـدر إيمانه وحُسـن أعمالـه فمـنّ صـح إيمانه وحَسُـن عملـه اشـتدّ بلاؤه، ومن سـخف إيمانـه وضعـف عمله قلّ بلاؤه**»[٢]. وقد ذكـر الله تعالى أصناف اختباراتهم في القرآن الكريم.

طبعاً، تختلف أهداف وأنواع الاختبار والابتلاء بين الناس من شخص لآخر، لكن في المبدأ الجميع مبتلى والجميع ممتحن.

ثانياً: الاختبار قد يأتي لفرد وقد يأتي لجماعة.

ثالثاً: الله تعالـى، في أحيان كثيرة، يمتحن الإنسان فـي أكثر من شأن من شؤون الحيـاة. فقد يكـون الاختبار الإلهيّ بالفقـر، بالمرض،بالموت، وقـد يكون بالصحة

(١) كتاب التمحيص، الإسكافي، ص٦.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٢٥.

والغنى والمُلك، وقد يشمل الامتحان في وقت واحد شأنين، أو ثلاثة، أو أربعة.

رابعاً: قد تختلف أنواع وحجم الابتلاءات بين شخص وآخر وذلك بحسب إمكانات وطاقات وطموحات وتطلّعات هذا الشخص، وقد تختلف من جماعة إلى جماعة، لذلك فالأنبياء عليهم السلام ابتلاءاتهم مختلفة، الأوصياء والأولياء والمؤمنون بلاءاتهم مختلفة، وهذا كلّه عن حكمة وتقدير أيضاً.

خامساً: من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أنّه عندما يختبرهم ويبتليهم بالنّعم أو بالنّقم، لا يكلّفهم بما لا يقدرون عليه، أو لا يستطيعون تحمّله، فالله تعالى يريد لعباده النجاح حيث إنّهم عباده، ولأنّ الله سبحانه وتعالى لم تقم مشيئته على نحو الإلزام التكويني، وضع لنا شرطاً، وهو أن يكون هذا النجاح بمشيئتنا واختيارنا، بإرادتنا، وجهدنا وعملنا.

سادساً: في الاختبار الإلهيّ، قد تتوفّر فرصة التصحيح وقد لا تتوفّر، فلو ابتلي الإنسان بذنب كالغيبة مثلاً فإنّ بإمكانه تصحيح فشله في الاختبار بالتوبة والاستحلال ممّن اغتابه أمّا ذنب الشرك فإنّه لا يغفر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾[1].

سابعاً: في الاختبار الإلهيّ أيضاً ولكرم الله وعطفه ورحمته علينا زوّدنا بكلّ عناصر النجاح وسخّر لنا كلّ الإمكانات: الأرض، الشمس، الكواكب، النجوم، الأنعام والحيوانات والبحار كلّها مسخّرة للإنسان. أعطانا الله العقل الّذي به نفكّر لنقوم بالعمل الواجب ونبتعد عن الحرام. كذلك، أعطانا القدرات الجسديّة والنفسيّة الّتي تؤهّلنا للنجاح ومنحنا السمع والبصر، والأيدي والأرجل، يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[2] ويكمل ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣.

وإضافـة إلى ذلك فقـد أرسل الله تعالى لنا الأنبياء والرسـل وأنزل الكتب وأقام الحجـج والأوليـاء، فلا تخلـو الأرض من حجّـة لله على الخلائق، وبـذا هدانا سواء السبيل. إذاً الهداية العامّة متحقّقة. أيضاً عرّفنا الأنبياء والأولياء إلى كيفيّة مواجهة البلاء وأعطونا في ذلك إرشادات تفصيليّة.

كيفيّة المواجهة

لا بـدّ من الالتفات أيضاً إلـى أنّ الامتحان الإلهيّ يستلزم مـن الإنسان عدّة أمور لمواجهته:

أوّلاً: الانتباه والحذر، فلا يغفل الإنسان عن حقيقة الدنيا.

ثانياً: أن يعمل الإنسان ويبذل بجدّ ما يستطيع للنجاح في الاختبار.

ثالثـاً: أن يستفيـد مـن الوقت، فيوم تأتي ساعـة الموت يتمنّـى الإنسان أن يعود إلـى الدنيـا ولو بمقـدار قليـل، ليعمل عمـلاً صالحـاً ينتفع به أمـام هـول المطّلـع وسـوء العاقبـة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1]. لـذا يجـب أن ننتبـه لقيمـة الزمـن وقيمـة العمر كبـاراً وشبابـاً، ولا يقولـنّ أحد إنّـي ما زلت شابّـاً والعمـر أمامي. فإنّ أغلـب الّذين يموتون هـم من الشباب، يقـول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

كذلـك يجـب أن نضع هدفـاً واضحاً ومحدّداً وهـو أنّنا يجـب أن ننجح ونفوز في الامتحان، لأنّ ذلك يعنـي الحصول على الحياة الحقيقيّة والنعيم، والسعادة الأبديّة السرمديّة.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩-١٠٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٩.

حتّى لا نُكرّر أخطاء الماضي

مـن أعظم الاختبـارات الإلهيّة الّتي مرّت علـى المسلمين والأمـة والبشرية كان الاختبار في الأيّام الأولى من سنة ٦١ للهجرة مع الإمام الحسين عليه السلام .

لقد كانت الأمّة أمام واقعين، الأوّل يتمثّل في مقام خلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الّتي يريد أن يتسلّـم قيادتها شخص كيزيد بن معاوية مع ما يتّصف به هذا الإنسان من سلوك وصفات سيّئة. وهذا بحدّ ذاته اختبار عظيم وهائل للأمّة.

الواقـع الآخر الّذي كان أيضـاً مورد اختبار وامتحان للأمّة وهـو الأكثر أهميّة أنّ الإمام الحسين عليه السلام ، الّذي هو سيّد شباب أهل الجنّة ليس في الأرض غيره ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قام ليواجه هذا التهديد وهذا الخطر على الإسلام والأمّة والخلافة. مـاذا سيفعـل المسلمون في هكذا موقـف؟ كان هذا الامتحان مـن أصعب ما مرّ في تاريخ المسلمين، كان نوعاً من الامتحانات الحاسمة لكلّ فرد من أفراد المسلمين.

تحليل هذه الوقائع وقراءتها مهمّ جدّاً. اكتشاف نقاط الضعف والقوّة.. لماذا مـن وقف مـع الإمام الحسيـن عليه السلام وقف معه؟ ولمـاذا الّذي خـرج عليه خرج ليقتله عليه السلام ؟ ولماذا هناك من وقف على الحياد؟ هذا كلّه وبالإحاطة به له قيمة ليسـ فقـط معلوماتية ومعرفية، لكن قيمتـه أيضاً تتّصل بقيمة حياتنـا، لأنّنا نواجه نفسـ الاختبارات، ونفس الابتلاءات والامتحانـات. ولكن، عندما نقرأ تلك التجربة، نستفيد من نقاط ضعفها وقوّتها أين كان الخطأ وأين ضاعت الفرص؟...

وذلك.. حتّى لا نُكرّر أخطاء الماضي.

للمطالعة

اهربوا من الدنيا

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال : «**كان عيسى بن مريم** عليه السلام، **يقول لأصحابه: يا بني آدم، اهربوا من الدنيا إلى الله، وأخرجوا قلوبكم عنها، فإنّكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم، ولا تبقون فيها ولا تبقى لكم، هي الخدّاعة الفجّاعة، المغرور من اغترّ بها، المغبون من اطمأنّ إليها، الهالك من أحبّها وأرادها، فتوبوا إلى بارئكم، واتّقوا ربّكم، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا.**

أين آباؤكم، أين أمّهاتكم، أين إخوتكم، أين أخواتكم، أين أولادكم؟ دُعوا فأجابوا، واستودعوا الثرى، وجاوروا الموتى، وصاروا في الهلكى، وخرجوا عن الدنيا، وفارقوا الأحبّة، واحتاجوا إلى ما قدّموا، واستغنوا عما خلفوا، فكم توعظون، وكم تزجرون، وأنتم لاهون ساهون! مثلكم في الدنيا مثل البهائم، همّكم بطونكم وفروجكم ، أما تستحيون ممّن خلقكم؟! وقد وعد من عصاه النار ولستم ممّن يقوى على النار، ووعد من أطاعه الجنّة ومجاورته في الفردوس الأعلى، فتنافسوا فيه وكونوا من أهله، وأنصفوا من أنفسكم، وتعطّفوا على ضعفائكم وأهل الحاجة منكم، وتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً، وكونوا عبيداً أبرارا، ولا تكونوا ملوكاً جبابرة ولا من العتاة الفراعنة المتمرّدين على من قهرهم بالموت، جبّار الجبابرة ربّ السماوات وربّ الأرضين، وإله الأوّلين والآخرين، مالك يوم الدين، شديد العقاب، أليم العذاب، لا ينجو منه ظالم، ولا يفوته شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يتوارى منه شيء، أحصى كلّ شيء علمه، وأنزله منزلته في جنّة أو نار.

ابن آدم الضعيف ، أين تهرب ممّن يطلبك في سواد ليلك وبياض نهارك وفي كلّ حال من حالاتك، قد أبلغ من وعظ، وأفلح من اتعظ»[١].

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٦٥٠.

2

شكر النِّعم

يقول الله سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا
هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(١)

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

تمهيد

تعتبـر النِّعَـم من موارد الاختبـار الإلهيّ الّتـي يتعرّض لها الإنسـان في حياته. والنِّعَـم لها آداب في كيفيّة التعاطي معها، فكمـا أنّ الصبر من مستلزمات النجاح فـي الابتـلاء بالمصائب، فكذلك الشكر هو من مستلزمـات النجاح في تلقّي النِّعَم الإلهيّـة.

إنَّ الله تعالـى يختبر عبـاده بالنعمة والمنحة، كما يختبرهـم بالمصيبة والنَّقمة والمحنة.

يقـول الله تعالـى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[1].

هذه من الآيات الّتي تتحدّث عن نِعَم الله - سبحانه - على عباده.

فـي اختبـار النِّعم يبتلينا الله بما أنعـمَ ليختبرنا كيف سنتصـرَّف. وإذا راجعنا الآيـات والأحاديث الشريفة، نحصل على مجموعة عناوين حول النّعم الإلهيّة وكيفيّة التصرّف بها، نبدأ بعرضها على النحو التالي:

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

أوّلاً: علينـــا أنْ نشعر بالنِّعَم الإلهيّــة ونعترف بها، فنحن نغفل عن الكثير من نِعَم اللّه علينا. لذا يجب أن نذكّر أنفسنا بها دائماً.

ثانيــاً: علينـــا أن نسلِّم، أيضاً، بأنّ هذه النِّعَم هي من اللّه عزّ وجلّ، فما من فضلٍ أو حسنةٍ إلا هي من عند اللّه.

أمَّــا السبب في ضــرورة الالتفات إلى تذكُّر النِّعمة فذلــك لأنّنا نغفل عنها لكوننا اعتدنــا عليها فلــم نعد نراها، إذ تصبح أمــراً طبيعيّاً. لقد أنعــم اللّه علينا بالوجود وخلَقنــا فــي أحسن تقويم، وزوَّد أجسادَنــا بكلّ ما نحتاج إليــه، أعطانا البصر لنرى ونتمتَّــع بكلّ شيء فــي هذا الكون، فالعيــن وسيلة لاختبار العلــم والمعرفة والهداية، وكذلــك وهَبنــا - سبحانه - بقيّة الحواسّ، وأعطانا من الطاقــات الروحيّة ما يمكّننا مــن التمتُّع بالنِّعَم المادّيّة والروحيّة، فكمــا أنّ هناك لذّات مادّيّة، هناك أيضاً لذّات روحيّــة. فإحساس الإنسان بكرامته وكرم اللّه عليه يولّد لديه لذّة روحيّة. أمَّا الشعور بالمعصية والذلّ فهو نقص معنويّ وألم روحيّ.

إنّ التمتُّع بالصحّة وسلامة العقل والروح من نِعَمِ اللّه علينا، وكذلك وجود الرسل والأنبياء والأولياء الصالحين، من النعم الإلهيّة. يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

ومــن نِعَم اللّه - سبحانــه - دفعُه عنّا بعض المصائب والبــلاءات. فإذا كنّا في بلدٍ ليس فيه زلازل أو براكين أو فيضانات، فهذا أيضاً من نِعَم اللّه.

شكرُ المنعم

ثالثـاً: بعد معرفة تلــك النِّعم ونسبتها إلى اللّه، يبقى علينـــا أن نشكره على نِعَمه. والقــرآن يذكّرنا في أكثر مــن سورة قرآنيّة بضــرورة الشكر: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ٥٢.

و﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[١]. وفي بعض الآيات هناك أمر بالشكر: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾[٢] و ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٣]. وقد مدح تعالى بعضَ أنبيائه بالاسم كإبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام من خلال صفة الشكر. كما ندّد بالعباد الّذين لا يشكرون في قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٥]. أمّا السبب في الحضّ على الشكر فلأنّه «**بالشكر تدوم النِّعَم**»، بل تنمو وتتكاثر. قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٦]. ونحن لدينا أدعية الشاكرين، ومناجاة الشاكرين. أن نقول: «**الشكر لله**»، فهذا من الشكر.

رابعاً: أن نُحدِّثَ بالنعمة؛ فإنّ الشعور بالنعمة ومعرفتها ونسبتها إلى الله تعالى، هذا كلّه شيء داخليّ ويبقى الانطلاق للإظهار. يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٧]. فإذا كان الإنسان غنيّاً وراح يتذمَّر ويُنكر، فهذا خلاف شكر النِّعَم. جاء في بعض الروايات أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده**»[٨].

والتحدُّث عن النعمة لا يعني أن نُخبر الناس بها، بل أن نُظهرها في حياتنا ليرى الله أثر نعمته علينا. وهنا لا بدّ من التوسّع قليلا لأجل تصويب بعض من المفاهيم الخاطئة والشائعة بين الناس.

إنَّ إظهار النعمة والتحدُّث بها يجب أن يكون ضمن ضوابط الاعتدال، أي بدون بَطَر وإسراف وتضييع. في سُنَن أبي داود، عن أبي الأحوص عن أبيه أنّه أتى النبيَّ

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٤.
(٤) سورة يس، الآية: ٣٥.
(٥) سورة النمل، الآية: ٤٠.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٧) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٨) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٧٠، ص٢٠٧.

في ثوب دون (عتيق رثّ غير مناسب) فسأله النبيُّ: «**ألَكَ مال؟ قال: نعم. قال**صلى الله عليه وآله وسلم: **أيُّ مال؟ فقال الرجل: آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق. فقال**صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا آتاك اللهُ مالاً فلْيُرَ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته**»[١].

الله جميل يحبّ الجمال

يتحدّث الناس عن الزهد والتديُّن والوَرع، بأن يرتدي الواحد منهم ثياباً رثَّة ممزَّقة، ولا يضع الطِّيب، ويبقى بدون استحمام. ليس هذا ما أراده اللّه. عن أبي عبد اللّه عليه السلام: «**إنَّ الله عزّ وجلّ يحبّ الجمال والتجمّل، ويُبغض البؤس والتباؤس**»[٢]. إنَّ اللّه يكره أن يُظهر الإنسان نفسه فقيراً، وهو ليس كذلك.

وقد ورد في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على عاصم بن زياد الّذي كان من الأغنياء، ولكنّه لبس العباء وترك الملاء[٣] فشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قد غَمَّ أهله وأحْزَنَ ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**عليَّ بعاصم بن زياد، فجيء به، فلمّا رآه عبس في وجهه، وقال له: أما استحييت من أهلك؟ أما رحمت ولدك؟ أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك، أوليس الله يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾[٤]؟ وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٥]**. فقال عاصم: يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الجشوبة وفي ملبسك على الخشونة؟ فقال: «**ويحك إنّ الله عزَّ وجلَّ فرض على**

(١) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٤، ص٣٣١٧.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٦، ص٤٤٠.

(٣) العباء بالفتح والمدّ جمع العباءة كذلك وهي كساء واسع من صوف، والملاء بالضمّ والمدّ جمع الملاءة كذلك وهي الإزار وكلّ ثوب ليّن رقيق.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ١٠-١١.

(٥) سورة الضحى، الآية: ١١.

أئمّـة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفـة الناس كيلا يتبيّغ[١] بالفقير فقره، فألقى عاصم بن زياد العباء ولبس الملاء»[٢].

خامساً: الحفاظ على النِّعم وعدم التفريـط بها وإهدارها هو من الواجبات تجاه الله عزّ وجلّ. فلا يجوز، مثلاً، أن يقتل الإنسان نفسه أو يُلحق بها الضرر.

كذلـك عندما نذهب إلى النِّعم العامَّة الّتي تُفيد الناس جميعاً كالبيئة وسلامتها، فعلينا جميعاً أن نحافظ عليها. أمّا تخريب البيئة فهو كُفران بهذه النعمة. لذا لا يجوز إهدار الثروات الطبيعيّة الّتي هي ملكٌ لجميع الناس. والإسراف بالماء وإهداره غير جائز، وقِسْ على ذلك.

كيف نحافظ على النِّعَم؟

سادساً: عدم استخدام النِّعم بالمعاصي: إذا أردت أن تختم آخرتك بخير، فعظِّم آلاء ربِّك، وحافظ على نعمائه، ولا تستبدلها بالمعاصي.

فـي الحديث القدسيّ: **«يا بـن آدم، تسألنـي فأمنعك لعلمي بما ينفعـك، ثمّ تلحّ علـيّ بالمسألـة فأعطيك ما سألت فتستعين به على معصيتي، فأهمّ بهتك سترك، فتدعوني فأستر عليك، فكم من جميلٍ أصنع معك وكم من قبيحٍ تصنع معي»**[٣].

علينا أن نحافظ على نعمة الصحّة والعافية، فلا نأكل الحرام. وإنّ من يملك المال لا يجوز له استغلاله في الفتنة والنميمة وقتل الناس. ويجب ألَّا يستخدم الإنسان قوّته وجاهه وماله في معصية الله؛ فإنّ هذا يسلب النِّعم.

سابعـاً: إنّ استعمـال النِّعـم في طاعـة الله وإعمـار الدنيا والآخـرة، من أعظم مصاديـق الشكـر، منها: خدمة النـاس وقضاء حوائجهـم، إغاثة الملهـوف، كفالة

---

(١) تَبَيَّغَ الدمُ بفلان: ثار به حتى غلبه.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٤١٠.
(٣) الجواهر السنيّة، الحر العاملي، ص ٨٨.

اليتيـم، الدفاع عن المظلومين والمضطهدين والمعذَّبين، إصلاح ذات البين، توحيد الكلمة ودفع الكيد. روي عن الرسول الأكرم ﷺ: «**إنّ لله عباداً خصَّهم بالنِّعم، يُقرُّها فيهم (يجعلها عندهم) ما بذلوها في خدمة الناس، فإذا منعوها عن الناس حوَّلها عنهم إلى غيرهم**»[٤].

الدنيا المذمومة

ثامناً: إنّ اللّه تعالى قال: أنا مَنْ أعطاكم النِّعم، فاشكروها بألسنتكم، واذكروها واحفظوهـا وحدِّثوا النـاس بها، وَلْتَظْهَرْ فـي وجودكم، وحياتكـم، واستخدموها في الطاعات.

والنِّعَـم كثيرة كذلك، فإنّ نسبةَ ما حرَّمـه اللّه علينا ـ مقارَنةً بما حلَّله لنا ـ ضئيلةٌ جدّاً لا تُذكَر. فالأصل هو الحلِّيَّة. ولكنَّ اللّه تعالى يُحذّرنا من أن نتعلَّق روحيّاً وجسديّاً بهذه النِّعم. يجب أن لا نصبح أسارى وعبيداً لها وأن لا نحوّل السلطة والمال إلى إلهٍ يُعبَد.

هذا هـو المعنى الحقيقـي للدنيا الّتي يحذِّرنـا منها اللّه ـ سبحانـه ـ ورسوله ﷺ والأئمّـة عليهم السلام. التحذيـر من الدنيا ليس بمعنى ألّا نملك المـال والدار أو أن لا يكون لدينا زوجة وأولاد.. بل كلّ هذا مطلوب وُمستحبٌ وفي بعض الأحيان واجب، فإنّه كما قيل في تفسير الزهد: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، بل الزهد أن لا يملكَكَ شيء».

يُكتـب على بعض القصور: «لو دامت لغيرك ما وصلَتْ إليك». ومع ذلك فإنّ كثيراً مـن السلاطيـن والحكّام يعيشـون حياة الخالديـن. ولكنَّ السلطة لا تـدوم، وكذلك الصحّة والمال.. هذه هي الدنيا المتقلّبة من حالٍ إلى حال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٥].

---

(٤) الرسالة السعديّة، العلّامة الحلّي، ص١٦٣.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

وبما أنّ هذه الدنيا فانية فلِمَ تربط نفسك ومصيرك بنعَمٍ زائلة؟!. هذه هي مشكلة الناس حتّى أيّام الرسل والأنبياء والأولياء والأئمّة عليهم السلام ودعاة الإصلاح. عندما سقط إبليس في الامتحان الأوّل نتيجة العجرفة ورفض السجود لآدم عليه السلام، وضع هدفاً نصب عينيه، وقد أعطاه الله وقته ليبتليه ويبتلينا به. قال (إبليس) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1]. فشأن إبليس هو إضلال الناس، وغوايتُهم، وأهم سلاح في يده هو الدنيا بمُغرياتها.

وفي الختام نذكّر أنه عندما نشكر الله، اللهُ يشكرنا. وشكرُه لنا بأن يزيد علينا نعمه، أن يزيدنا عزّةً وكرامةً ومنعةً وتماسكاً وعافيةً في الدين والدنيا والآخرة، إن شاء الله.

نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين لأَنعمه، بالقول والفعل والعاطفة واللسان والعمل، وأن يُبقينا عبيداً له وحده، وأن لا يجعلنا،- في يوم من الأيّام- عبيداً لحُطام هذه الدنيا الفانية، وأن نكون مع الحقّ ونصرة الحقّ، ومع أوليائه نقدِّم الحقّ لتكون لنا عمارةٌ في الدنيا، وعمارةٌ في الآخرة أيضاً.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦.

للمطالعة

دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الشاكرين

بسم الله الرحمن الرحيم إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طَولك، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيضُ فضلك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك، وأعياني عن نشر عوارفك[١] توالي أياديك[٢]. وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء، وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع، وأنت الرؤوف الرحيم، البَرّ الكريم، الّذي لا يُخيّب قاصديه، ولا يطرد عن فِنائه آمليه، بساحتك تُحطّ رحال الراجين، وبعرصتك تقف آمال المسترفدين[٣]، فلا تُقابل آمالنا بالتخييب والإياس، ولا تلبسنا سربال[٤] القنوط والإبلاس[٥].

إلهي تصاغر عند تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك إيّاي ثنائي ونَشري. جلّلَتني نعمك من أنوار الإيمان حُللا، وضَرَبَت عليّ لطائف برّك من العزّ كِللا[٦] وقلّدتني مننك قلائد لا تُحلّ، وطوّقتني أطواقا لا تُفلّ، فآلاؤك جمّة ضعف لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها. فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر؟! فكلّما قلت لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد.

إلهي فكما غذّيتنا بلطفك، وربّيتنا بصنعك، فتمّم علينا سوابغ النعم، وادفع عنّا مكاره النقم، وآتنا من حظوظ الدارين أرفعها وأجلها عاجلاً وآجلا. ولك الحمد على حسن بلائك وسبوغ نعمائك، حمداً يوافق رضاك، ويمتري العظيم من برّك ونَداك، يا عظيم يا كريم، برحمتك يا أرحم الراحمين[٧].

---

(١) عوارفك: إحسانك.
(٢) أياديك: نعمك.
(٣) المسترفدين: طالبي العطاء.
(٤) السربال: القميص.
(٥) الابلاس: الحيرة.
(٦) كللا: أستارا.
(٧) الصحيفة السجّاديّة، ص٤٠٩.

3

من الشَّريعة حفظ النِّظام

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ
ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ
فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[١]

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

تمهيد

إنّ من يجيل نظره ويعمل فكره في هذا الكون المترامي الأطراف يرى النظام والدقّة والحكمة والعظمة فيه، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾[١] ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٢]، وفي هذا الخلق تتكشّف لنا صفات الحكمة والعظمة والقوّة والقدرة في الخالق الّذي أبدعها وأنشأها. وعندما خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، سواءً في البعد الجسديّ أم فيما يتعلّق بالروح الإنسانيّة الّتي هي أكثر تعقيداً من الجسد، خلقه على أساس نظام دقيق جداً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٣].

الإنسان يخضع لنظامين

كذلك من الواضح القول إنّ كلّ ما هو خارج إرادة الإنسان وقدرة الإنسان يسير ضمن نظام تكوينيّ قهريّ، وهو خاضع لسُنَن صارمة وقوانين حاسمة وقاطعة، وضعها الله سبحانه وتعالى في هذا الوجود وفي هذا الكون، يقول تعالى: ﴿ سُنَّةَ

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧ ـ ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة التين، الآية: ٤.

ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ﴾[١].

كذلك وضع الله سبحانه وتعالى لحياة الإنسان نظاماً أمره باتّباعه، وهذا النظام نسمّيه الشريعة، يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةٗ وَمِنْهَاجٗاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[٢].

والفرق بين النظامين أنَّ النظام الأوّل خارج عن إرادتنا واختيارنا ونحن خاضعون لسُنَنِه وقوانينه، لا نقدر على أن نفعل شيئاً، فحركة الشمس والأرض والكواكب خاضعة لقوانين كونيّة لا تقدر على الخروج عليها، يقول تعال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسْبَحُونَ ﴾[٣].

النظام التشريعي

أمّا النظام الثاني فهو يتعلّق بالقضايا التشريعيّة، الّتي وضعها لنا الله سبحانه وتعالى وهو الأعلم بمصالحنا ومفاسدنا منّا، وقد أراد لنا من خلال الالتزام بها أن نصل إلى السعادة وإلى الحياة الطيّبة وذلك ضمن دائرة الاختيار لا الإجبار. وبأدنى تأمّل نجد أنّ روح التنظيم سارية في كلِّ الشريعة، في البعد العباديّ، والمعاملاتيّ والأخلاقيّ.

ولذلك نرى أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ في اللحظات الأخيرة من حياته، عندما جمع حوله الإمامين الحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وبقيّة أولاده وأهله، قال لهم في ما قال من الوصيّة: «**أوصيكما وجميع وُلدي وأهلي ومن بلغه كتابي**

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) سورة يس، الآية: ٤٠.

بتقـوى الله، ونظـم أمركـم، وصـلاح ذات بينكم، فإنّي سمعـت جدّكم رسول الله ﷺ يقـول: «صـلاح ذات البين أفضل من عامّة الصـلاة والصيام»[١]. ومن هذه الكلمات نتبيّـن أهميّة النظام إذ جاءت في المرتبـة الثانية بعد وصيّة الإمام لبنيه بتقوى الله تعالـى، هذه الوصيّة الّتي لا تختصّ بأبناء الإمام عليّ عليه السلام بل هي عامّة شاملة لكلّ الأنام، ونحن معنيّون بها.

فتقوى الله تعني اجتناب معصية الله، أو اجتناب الحرام والقيام بالواجبات.

ونظم الأمر يعني أن تكون أمورنا كلّها منظّمة مرتّبة.

وصلاح ذات البين أن لا نتخاصم ونتفرّق بل أن نتعاون ونتماسك.

لا بدّ للناس من أمير

لقد أكّد الإسلام أنّ أيّ شعب أو مجتمع أو جماعة بشريّة، تعيش في مكانٍ ما وفي ظـروف مشتركـة ومعّينة لا بدّ لها من نظام وحكومة. في أدبيّات الزمان الماضي في صدر الإسلام كانوا يقولون لا بدّ من إمارة، كما عن الإمام عليّ عليه السلام: «**لا بدّ للناس من أميرٍ برٍّ أو فاجر**»[٢].

وعندما يقول الحديث الشريف: «**لا بدّ للناس من أمير برٍّ أو فاجر**»، فإنّه لم يعط شرعيَّة لحكومة الفاجر بل وصَّف الحاجة الطبيعيّة للجماعة البشريّة وإلى النظام.

يعنـي جاء الإسلام أوّلاً وتكلّم بالمبـدأ، مبدأ الحاجة إلى نظام وإلى حكومة وإلى قانون.

حكومة الدولة الإسلاميّة

وكذلـك بعدما ثبَّت الإسلام المبدأ جاء ليقـول إنّ النظام، أو القانون أو الشريعة الّتـي تستطيع أن تحقّق الآمـال والأهداف الّتي يريدها الله للناس، إنَّما هي شريعة

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٧٦.

(٢) م.ن، ج١، ص٩١.

الحكومـة أو الدولة الّتي تحكم بما أنـزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(٢) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾(٣).

وقد تحقّقت الدولة والحكومة الإسلاميّة أيّام رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، ثـمَّ اتّسعت إلى مكّـة وإلى شبه الجزيرة العربية. وقـد كان رسول الله ﷺ على رأس هـذه الدولة والحكومة وقد حكـم بشريعة الله والقانون الإلهـيّ المنزل، فهو الّذي لا ينطق عن الهوى، حكم بما ينسجم والتشريع الإلهي لا بما ينسجم مع هواه أو مشاعره أو عواطفـه –وإن كنّـا نعتقد بأنّ هواه ومشاعـره وعواطفه كلّها لله تعالى وأنّه حصل علـى مرتبتـه العليا في القرب مـن الله سبحانه بحيـث إنّه لا يمكـن أن يفكّر بشيء يخالف الرضـا الإلهيّ- كما يحصل في أيّامنا هذه، عند من يضعون القوانين بحيث يجيّرونها لمصالحهم ويبدّلون فيها بحسب أهوائهم وأمزجتهم.

يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾(٤). فالنبيّ أو المعصوم أو من ينوب عنهما –حيث لا بدّ للناس من أمير- هو الحاكم والكتاب شرعة الله تعالى لكي يكون القسط ويسود العدل بين الناس، فمنافع الحكم بالشريعة الإلهيّة تعود لعامّة الناس لا لمصالح فئويّة وشخصيّة كما يحصل عندما يضع بعض البشر الأنظمة والقوانين.

ومـن يتأمّل فـي طريقة الإسلام في معالجـة المشاكل الّتي يتعرّض لها الإنسان والمجتمع في هذه الحياة يجد أنّ الإسلام ينشد الغرض من خلق الإنسان وهو إيصاله عـن اختيار إلى الكمـال المعنويّ والفـوز برضا الله عزّ وجلّ والقـرب منه، وذلك لا

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

يتحقّق إلّا بتنمية الروح الإنسانيّة المودعة فيه وفطرته السليمة الّتي خلق عليها، وتعديل الغرائز المختلفة الكائنة فيه، ولذلك أرسل الله سبحانه رسله بالبيّنات وأنزل معهم الكتاب والحكمة والميزان لتحقيق هذا الغرض، وقد قال النبيّ ﷺ: «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»، فجاء ﷺ بتعاليم أخلاقيّة سامية وعلّم الكتاب والحكمة، ودعا إلى تهذيب النفوس، وأمر بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وقد نجح - إلى حدّ بعيد - في هذا المجال، فكان في نفس كلّ إنسان مسلم متأدّب بآدابه وازع داخليّ يمنعه من الاقتراب من أموال الآخرين والنيل من أعراضهم والتعدّي على حقوقهم، وهذا غاية المنى من أيّ قانون يطلبه الناس.

فلسفة الأحكام الجزائيّة

إلّا أنّ ذلك لوحده لا يكفي خاصّة مع وجود بشر منحرفين لديهم نزعة الإفساد في الأرض، يعتدون على غيرهم دون وجه حقّ، ولمعالجة هذا الأمر جعلت الأحكام القضائيّة والقوانين الجزائيّة في الشريعة الإسلاميّة لتكون سدّاً أمام من لم ينتفع بالآيات والحِكم ولم تؤثّر فيه المواعظ والآداب، فمال مع غرائزه النفسانيّة الّتي تحمل الإنسان على أن لا يقتنع بحقوقه وتدفعه إلى الظلم والتعدّي على حقوق الآخرين، فجعل «**القاضي**» لكي يكون مرجعاً للناس لفصل الخصومات وقطع المنازعات، وجعل «**الحديد**» فيه بأس شديد تستأصل به جذور الفساد وعناصر البغي في المجتمع.

ثمّ يأتي البحث الأساس ليناقش احتمالات أنّه إذا كنّا في بلد ويمكن أن نقيم فيه دولة إسلاميّة، أو أقمنا فيه دولة إسلاميّة فلا مشكلة في مراعاة القوانين، فهي دولة شرعيّة والناس يتعاونون معها ويلتزمون أنظمتها وقوانينها وأحكامها وإجراءاتها، إلى آخره....

في ظلّ دولة غير إسلاميّة

لكنّ المسألة أنّه في مثل الزمن الّذي نحن فيه، المسلمون يعيشون في بلدان مختلفة من العالم، أي في بلد مختلط فيه مسلمون ومسيحيّون أو أتباع ديانات

أخــرى حيث لا يكون من المتاح فيه إقامة دولة إسلاميّة، وبالتالي تقوم فيه دولة غير إسلاميّــة فكيف يتصرّفون؟ والحال أنّ الحكومــة موجودة بأنظمتها وقوانينها، وهذه القوانيــن الّتي تضعها أحياناً قد تكون متطابقة مــع الأحكام الإسلاميّة وأحياناً قد لا تكــون متطابقة بــل متعارضة مع الأحــكام الإسلاميّة. في هذا العصــر هذا الابتلاء موجود. فما هو الموقف تجاه هذه القوانين؟

التعاطي مع القوانين الوضعيّة

الإســلام قدّم رؤيــة واقعيّة متقدّمة جدّاً. فهو يــرى أنّ الهدف والهمّ الحقيقيّ هو النـاسـ، فالناس في أيّ مجتمع يلزمهم حكومة ونظام لأجل مصالحهم، لأجل أمنهم واستقرارهــم، وأيضاً لأجل تطوّرهــم، وحتّى يتمكّنوا من حــلِّ مشاكلهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة وغيرها.

الإسلام لا يريد أن يتنازعوا، بل أن ينظّموا حياتهم بشكل أو بآخر. إذا توفَّر هذا في دولة إسلاميّة فهذا جيد، لكن إذا لم تكن هناك دولة إسلاميّة، وهناك قوانين لدى هذه الدولة غير الإسلاميّة، قوانين ترعى مصالح الناس، تنظِّم الشؤون الحياتيّة للناس، تؤمّن هذا الهدف بشكل أو بآخر، هنا لا يأتي الإسلام ويقول: لأنَّ هذه القوانين صادرة عن دولة غير إسلاميّة فهذه قوانين غير محترمة ولا يجب مراعاتها، اذهبوا واعملوا الّذي تريدونه؛ أي الفوضى، فإن هذا خلاف الهدف ولا يقبل به الإسلام.

جاء الإسلام وقدّم، بحسب اجتهاد فقهائنا ومراجعنا الكبار، قدّم فهماً، يتحدَّث عــن شيء اسمه حفظ النظام العام، حفظ المصالــح العامّة للناس وللمجتمع، عدم جواز الإخلال بالحياة العامّة والنظام العامّ والقوانين العامَّة الّتي ترعى شؤون الناس وحياتهم ومصالحهم. حتّى لو كان ذلك في ظلّ دولة غير إسلاميّة.

فلا ينبغي لنا بعد ذلك كلّه أن نخالف الأمر الّذي دعا إليه الشرع الحنيف، بل ينبغي أن نكون منتظمين خلفه ملتزمين بتوجيهاته، إذ بها ننال خير الدنيا وعافية الآخرة.

للمطالعة

الدين والقانون [١]

قد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة: بأنّ البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله. وبدلاً من المضيّ في الجهود الّتي لا تأتي بنتائج مثمرة، علينا أن نعترف بالواقع لّذي يدعونا إليه الدكتور فرويدمان، حين يقول: «**يتّضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنّه لا بدّ من هداية الدّين لتقييم المعيار الحقيقيّ للعدل. والأساس الّذي يحمله الدّين لإعطاء العدل صورة عمليّة ينفرد هو بها في حقّيته وبساطته**»[٢]. إنّنا نجد في الديّن جميع الأسس اللازمة الّتي يبحث عنها المشرّعون لصياغة دستور مثالي، ولكي يتّضح صدق ما نقوله، نأتي بالدراسة الوجيزة التالية في أهمّ مشكلات التشريع الإنسانيّ:

(منها) مصدر التشريع، وأوّل الأسئلة وأهمّها بالنسبة لأيّ تشريع هو البحث عن مصدر هذا التشريع: من الّذي يضعه؟! ومن ذا يعتمده حتّى يصبح نافذ المفعول؟.

لم يصل خبراء التشريع إلى إجابة عن هذا السؤال حتّى الآن. ولو أنّنا خوّلنا هذا الامتياز للحاكم، لمجرّد كونه حاكماً، فليس هناك أساس نظريّ وعلميّ يجيز تمتّعه هو أو شركاؤه في الحكم بذلك الامتياز، ثمّ إنّ هذا التحويل من ناحية أخرى لا يجدي نفعا، فإنّ إطلاق أيدي الحكّام ليصدروا أيّ شيء لتنفيذه بوسيلة القوّة؟ أمر لا تُطيقه ولا تحتمله الجماهير.

ولو أنّنا خوّلنا سلطة التشريع لرجال المجتمع، فهم أكثر جهالة وحمقاً، لأنّ المجتمع، أيّ مجتمع! إذا نظرنا إليه ككلّ، لا يتمتّع بالعلم والعقل والتجربة، وهي أمور لا بدّ منها عند التشريع. فهذا العمل يتطلّب مهارة فائقة وعلماً وخبرة، وهو

(١) راجع: الإسلام يتحدّى، وحيد الدين خان، ص ١٥٩ – ١٦١، بتصرّف.

(٢) Legal Theory . p . 450 .

مــا لا تستطيــع العامّة من الجماهيــر الحصول عليه، كما أنّهــا، وإن أرادت، لن تجد الوقت الكافي لدراسة المشكلات القانونيّة وفهمها. وللخروج من هذه المشكلة توصّل رجــال القانون إلى حلّ وسط، وهو أن يقوم (البالغــون) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثّليــن لهم، وهؤلاء بدورهــم يصدرون التشريعات باسم الشعــب. ومن الممكن أن نــدرك حماقة هذا الحلّ الوسط، حين نجد أنّ حزبــاً سياسيّاً لا يتمتّع إلّا بأغلبيّة ٥١ ٪ مــن مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقليّة، الّذي يمثّل ٤٩ ٪ من أفراد المجتمع البالغيــن. والأمــر لا يقف عند هذا الحدّ، لأنّ هذا الحلّ يحتــوي على فراغ كبير جدّاً تنفذ منه أقليّة لتحكم على أغلبيّة السكان.

وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس القانون ومصدره. والدّين يستجيــب لهذا التحدّي الخطير، الّذي قد يدّمر سعادة البشريّة كلّها. . إنّه يقول: إنّ مصــدر التشريع هــو الله وحده، خالق الأرض والكون، فالّــذي أحكم قوانين الطبيعة هــو وحده الّذي يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته. وليس هناك من أحد غيره سبحانه، يمكن تخويله هذا الحقّ.

إنّ هذا الجواب معقول وبسيط لدرجة أنّه يصرخ قائلاً- لو استطعنا أن نسمع نداءه-: هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوّي هذه المشكلة المصيريّة؟

لقــد وصلت بنا هذه الإجابة إلى مكانها الحقيقيّ مــن التشريع والمشرّع، بعد أن استحال علينا المضيّ خطوة ما في ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقيّ. إنّه لا يمكن قبول إنسان حاكماً ومشرّعاً للإنسان، ولا يستمتع بهذا الحقّ إلّا خالق الإنسان، وحاكمه الطبيعي: الله. (وقد يعطي الله سبحانه هذا الحقّ لمن يشاء كالرسول الأعظم ﷺ، حيــث يقــول سبحانــه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[1]، نعم، ولكن الرسول الّذي لا ينطق عن الهوى).

---

(١) سورة الحشر، الآية:٧.

3

برّ الوالدين

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ
كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ
ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[١]

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

تمهيد

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خُطبه: «**فما خُلقتُ ليشغلني أكلُ الطيّبات كالبهيمة المربوطة همُّها علفُها، أو المرسلة شغلها تقمّمها تكترش من أعلافها وتلهو عمَّا يُراد بها**»[(١)] وهو الذبح.

إنَّ الله تعالى لم يخلق السماوات والأرض عبثاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[(٢)]، وكذلك الإنسان، بمعنى أنَّ هذا الإنسان غير متروك ليحيا حياته بطريقة عبثيّة، بل هو مسؤول ويُسأل عن أفعاله.

يقول تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[(٣)]. كلّ الناس مسؤولون عن أفعالهم، نعم، هناك استثناءات كالصبيّ والصبيّة غير المكلَّفين، والمجنون. أمّا الكلام هنا فعمّن تتوفّر فيهم الصفات الّتي حدّدها الإسلام للإنسان المسؤول؛ البالغ العاقل، الّذي وقع عليه قول ربّ العزّة سبحانه وتعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[(٤)]، أي عن عملهم بالتكاليف الإلهيّة، و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

(١) نهج البلاغة، الشريف الرضي، ج ٣، كتاب رقم ٤٥، ص ٧٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٦.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢-٩٣.

وُسْعَهَاۚ ﴾[١] و﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٢].

وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته**»[٣]. فالأمير على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته. وربّ الأسرة راعٍ ومسؤول عن أهل بيته. والمرأة راعية أولادها، وهي مسؤولة عنهم، وهكذا كلّ منّا مسؤول بحسب موقعه من هذه الحياة.

وفي كلام آخر لأمير المؤمنين عليه السلام: «**اتقوا الله في بلاده وعباده، فإنَّكم مسؤولون عن البقاع والبهائم**»[٤]. وهذا ما نسمّيه اليوم: الثروات الطبيعيّة والحيوانيّة.

ومسؤوليّة الإنسان متعدّدة الاتجاهات: فهناك مسؤوليّات تجاه نفسه وبدنه وحاجاته الجسديّة، وتجاه روحه وحاجاته الروحيّة والنفسيّة. وهناك مسؤوليّة تجاه عائلته والأقرباء، وأهل قريته ووطنه، ومسؤوليّة تجاه البشريّة. وهناك مسؤوليّة تجاه الدِّين والقيَم.. ويجب أن يتحمّل الإنسان مسؤوليّته بقدر ما يستطيع، لأنّ الله لا يُكلّف نفساً إلّا وسعها، أي لا يأمرها بشيء إلّا دون طاقتها وإمكاناتها وقدرتها على الامتثال، وهذا من لطف الله تعالى على العباد.

مسؤلية الإنسان:

١. أن يعرف الإنسان تكليفه والمسؤوليّات الملقاة على عاتقه.

٢. أن يعرف شكل وروح المسؤوليّة ليبادر ويعمل ويتحمَّل ويجاهد في تحمّلها.

٣. أن يعمل ما تقتضيه هذه المسؤوليّة، حتّى إذا سُئل - يوم القيامة - تكون أجوبته كفيلة بأن تُدخله الجنّة، يقول سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص ٣٨.

(٤) نهج البلاغة، ج ٢، خطبة رقم ١٦٧، ص ٨٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

المسؤوليّة تجاه العائلة

أمّــا موضوع حديثنا فهــو المسؤوليّة تجــاه العائلة. وهذا الموضــوع ينبع من باب الحاجــة إلى التوجيــه النبويِّ الرساليّ، نتيجــة ابتعاد مجتمعاتنا عــن القيم الدينيّة والإلهيّة، ونتيجة تطوّر عالم الاتصالات وغزو التقاليد الغربيّة لمجتمعاتنا وتقاليدنا، فالــوارد إلينــا خطِر ومدمّر، وإن لم نكــن على جهوزيّة للتصدّي لــه أو لم تكن لدينا المناعــة المستمــدّة من روح الدين والعلاقــة مع الله تعالى، فــإنّ السقوط في وادي الجهالة والضلالة حتميّ ومؤكّد إلا من رحم ربّي.

تتضمّــن العائلة أو الأســرة، الّتي يسمّيهــا الإسلام بالحلقة الأضيــق، الأب والأمّ والزوجــة والأولاد. وهنــاك شبهة عنــد الناس في هذا الموضوع، فهــم يفترضون أنّ الحلقــة الأضيــق هي الزوجــة والأولاد. وبعضهــم يفترض أنّهم عندمــا يستقلّون في حياتهم، فالوالد والوالدة أصبحا خارج الدائرة الأضيق، وهذا فهم خاطئ.

نأتي إلى النظرة الإسلاميّة في الموضوع الاجتماعيّ، إن على صعيد الفرد أو على صعيد العائلة، فرؤية الإسلام ترتكز إليهما بلحاظ:

١. أنّ الفرد هو أصل المجتمع، لذلك نجد كلّ تعاليم الإسلام وتشريعاته، وتعاليم الأنبياء عليهم السلام، كلّها تركّز على تربيته وتنشئته.

٢. أنّ العائلــة هي في نظر رسالات السماء أساســ تكوين أيّ مجتمع إنسانيّ، وفي أيّ مدينــة أو أيّ وطن، أمّا في حالــة أفراد مفكّكين، فيفقد المجتمع البشريّ طبيعته وينتج بدلاً عنه مجتمع منحرف لا يستطيع الاستمرار والبقاء.

فالعائلة، ولو في إطارها الضيّق، عندما تكون متعاونة متراحمة، فهي تشكّل خلايا البيئة الاجتماعيّة السويّة، وهذا ينعكس على المجتمع كلّه.

مــن هنا تأتي التعاليم والرسالات لتؤكِّد على الزواج، الّذي هو مستحبّ، بل واجب في بعض الأحيان. الإسلام يتحدّث عن انتقاء الــزوج والزوجة، وتسهيلات الزواج،

وتقديمات الزواج، والحفاظ على الأسرة وبقائها، وتوزيع المسؤوليّات داخل الأسرة، كما يذكر تعقيدات موضوع الطلاق.

أزمة العائلة في الغرب

ابتلاءاتنا في المجتمع، هي فيما يأتينا من الغرب؛ ففي الغرب هناك مأساة على المستوى النفسيّ، برغم التطوّر العلميّ الهائل، وسنشهد خلال السنوات المقبلة، أزمات حادّة جدّاً في هذه الدول. إنّ ما نقرؤه من تقارير ودراسات حول مجتمعاتهم، والّذي يعكسونه في الأفلام السينمائية الّتي يصدّرونها إلى العالم العربيّ والإسلاميّ، كلّه يتحدّث عن تفكّك الأسرة، وارتفاع هائل في نسبة العزوبيّة. فلا توجد أسرة وعائلة طالما يظنّ الرجل والمرأة أنّهما يستطيعان تلبية حاجاتهما الجسديّة خارج إطار الأسرة، نتيجة الإباحيّة الّتي تنتشر في تلك المجتمعات. وهناك ارتفاع في نسبة الطلاق، ونسبة المولودين خارج الزواج الشرعيّ، حتّى خارج الزواج المدنيّ المتداول عندهم. وهذا ما يؤدّي إلى آثار روحيّة واجتماعيّة وأمنيّة سيّئة جدّاً.

هناك، عندما يكبر الوالدان، لا يسأل الأولاد عنهما، وإن سألوا يرمونهما في دور العجزة، وعندما يموتان تتكفّل البلديّة بدفنهما، وهذا ما يُريدون نقله إلى مجتمعنا!

وإذا دخلنا إلى الدائرة الأضيق (الأسرة) عندنا، ومن خلال بعض التوجيهات النبويّة والإسلاميّة، يمكن تجزئة هذه الدائرة الصغرى إلى ثلاثة أجزاء:

- الزوج والزوجة.
- الوالدان.
- الأولاد.

الوالدان والعناية الإلهيّة

وسيقتصر حديثنا عن الوالدين اللّذين نالا عناية إلهيّة خاصّة؛ يقول اللّه عزّ

وجـلّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[١].

إنّ اللّه تعالـى، انتقـل وبشكل مباشر من الدعوة إلـى عبادته وحده وعدم الشرك به إلى الأمر بالإحسان للوالدين، وهذا ما نراه متكرّراً قبل وفي كلّ آية ذكر فيها البرّ بالوالديـن، وذلـك لنرى المرتبة العظيمـة لهما، فالبِرّ بالوالديـن يرقى إلى مستوى توحيد اللّه سبحانه، ويضاف إلى هذا الفهم في إدراك أهميّة العلاقة بالوالدين أمور عديدة أيضاً منها:

١ - الإرشاد والتوجيه الإلهيّ

إنّ الإرشـاد والتوجيـه الإلهـيّ للإحسان بالوالديـن، له مساحتـه الإنسانيّة، فلا يُشترط في الوالدين أن يكونا مسلمَين، حتّى إن كانا مشركَيْن فالمسؤوليّة لا تسقط؛ البِـرّ والإحسان فرض واجب على كلّ مؤمـن تجاه أبويه مؤمنين كانا أم مشركين من نفـس المذهب أم من غيره، ملتزمين أم لا، من نفس الانتماء السياسيّ أو مخالفَين. فـلا تجوز مقاطعة الأبوين على أيّ حال، حتّـى ولو كانا مرتكبَين لذنب يوجب الخلود في النار ألا وهو الشرك باللّه تعالى، يقول سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ ﴾[٢].

روي عـن معمّر بن خلاد قال: قلـت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالدي إذا كانـا لا يعرفـان الحقّ؟ قـال: «**ادعُ لهما وتصـدّق عنهمـا، وإن كانا حيّيـن لا يعرفان الحقّ فدارهما، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق**»[٣].

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٥.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص١٥٩.

٢- مسؤوليّة حتّى آخر العمر

لا بدّ من التأكيد على المسؤوليّة تجاه الوالدين، وبالأخصّ عندما يعجزان وتنطوي سِنيّ شبابهما. فعندما يكبران في السنّ تصبح المسؤوليّة أكبر، بل إنّ استمراريّة هذه المسؤوليّة تتأكّد حتّى بعد وفاتهما، من خلال التصدّق عنهما بالمال وإهدائهما ثواب العمل الصالح، أو على الأقلّ بالدعاء لهما بالرحمة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[1].

جاء رجل إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: أوصني، يا رسول اللّه.

فمن جملة الوصيّة قال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**ووالديك فأطعهما وبِرَّهما حيَّيْن كانا أو ميتين**»[2].

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما يمنع الرجل منكم أن يبرَّ والديه حيَّيْن وميتين، يصلّي عنهما، ويتصدّق ويصوم ويحجّ عنهما، فيكون الّذي صنع لهما، وله مثل ذلك فيزيده الله ببرّه وصلته أجراً كثيراً**»[3]. فالأب والأمّ هما نعمة، حيَّيْن أو ميّتيْن.

٣- حقّ أمّك وحقّ أبيك

لقد أكّد الدِّين الإسلاميّ على مقام الوالدين، خصوصاً الأمّ الّتي أُعطيت مكانة مميّزة. فعن الإمام زين العابدين عليه السلام، في رسالة الحقوق: «**أمّا حقُّ أبيك فأن تعلم أنّه أصلك، وأنّك لولاه لم تكن، فمهما رأيت في نفسك ممّا يعجبك، فاعلم أنّ أباك أصلُ النعمة عليك فيه، فاحمد الله واشكره على ذلك، ولا قوّة إلّا بالله**».

«**أمّا حقّ أُمّك فأن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يُعطي أحد أحداً، ووقتْك بجميع جوارحها ولم تُبالِ أن تجوع**

---

(١) سورة الإسراء، الآية:٢٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص١٥٨.

(٣) م.ن، ص١٥٩.

وتُطعمك وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتُظللك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحرّ والبرد لتكون لها، وأنّك لا تطيق شكرها إلّا بعون الله وتوفيقه»(١). وقد روي ما مضمونه أنّ شخصاً حمل والدته على كتفيه وراح يطوف بها الكعبة، وعندما رأى النبيﷺ سأله: هل أدَّيت حقَّها، يا رسول الله؟

فقال له النبيّﷺ: «**لا ولا بزفرة واحدة**»(٢)، ويقصد بالزفرة الواحدة الوجعة الواحدة، أو الطلقة الواحدة، الّتي تغشى الأمّ حين الولادة والوضع.

ومن الأحاديث المعروفة في حقّ الأمّ: «**الجنّة تحت أقدام الأمهات..**»(٣). و «**أمُّك ثمّ أمُّك، ثمّ أبوك**»(٤).

كما ورد أنّه جاء عن النبيّ موسى بن عمران عليه السلام: قال: «**يا ربّ، أوصني. قال: أُوصيك بأُمِّك. قال: أوصني. قال: أُوصيك بأُمِّك. قال: أوصني. قال: أُوصيك بأُمِّك. قال: أوصني. قال: أُوصيك بأبيك**»(٥).

وسأل أحدهم النبيّﷺ عن حقّ الوالدين على ولدهما فقال ﷺ: «**هما جنَّتُك ونارُك**»(٦).

كيفيّة برّ الوالدين

تأسيساً على هذا الفهم على مستوى الآيات والروايات، نخلص إلى أنَّ ما هو مطلوب من الأبناء تجاه الوالدين أمور عديدة أهمّها:

١ـ الحدّ الأدنى عدم إيذائهما وهذا أضعف الإيمان. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾(٧). ولو

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٤٥٣.
(٢) شرح رسالة الحقوق، حسن القبانجي، ص٥٤٧.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي، ج ٢١، ص٤٢٨.
(٤) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٧١، ص ٤٩.
(٥) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٦٠١.
(٦) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٤، ص ٣٦٧٤.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

أنّ اللّه وجد في الوقائع واللغة، أخفّ من كلمة ﴿أُفٍّ﴾ لاستخدمها في الآية. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[(١)]: لا ترفع صوتك فوق صوتهما. لا تنظر إليهما نظر ماقت؛ ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «**من نظر إلى أبويه نظرة ماقت لهما وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة**»[(٢)].

٢. إطاعتهما وعدم معصيتهما في شيء إلا إذا كان تركاً لواجب أو فعلاً لحرام؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولو كان هذا المخلوق أمّاً أو أباً. أمّا موضوع الجهاد - وهذا موضوع كبير وخطير - فالجهاد الواجب لا يحتاج إلى إذن الوالدين، ومع ذلك فللوالدين مكانة عظيمة عند اللّه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ورد أنّه قد جاء أحدهم إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: إنّي رجل شابٌّ نشيط وأحبّ الجهاد ولي والدةٌ تكره ذلك. فماذا أفعل، يا رسول اللّه؟

فأجابه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**ارجع فكن مع والدتك، فوالّذي بعثني بالحقّ، لأنسُها بك ليلةً خير من جهادك في سبيل الله سنة**»[(٣)].

طبعاً هذا بالنسبة للجهاد المستحبّ، ولا يتعلّق بالجهاد الواجب عيناً.

٣. الشكر والدعاء والاستغفار لهما.

٤. احترامهما والإحسان إليهما: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[(٤)]؛ كتقبيل يَدَيهما إذ هي من العادات الطيّبة. روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إيّاك وعقوق الوالدين، فإنّ ريح الجنّة توجد من مسيرة ألف عام**»[(٥)]. لكنّ العاقّ لوالديه لا يشمّ هذه الريح الطيّبة، فهو بعيد عن الجنّة مسيرة ألف عام.

يقول الحديث الشريف: «**برُّوا آباءكم يبرُّكم أبناؤكم**»[(٦)].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ٢١، ص ٥٠١.
(٣) الكافي، الكليني، ج ٢، ص ١٦٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٣.
(٥) الكافي، الكليني، ج ٢٢.
(٦) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٣٦٤.

للمطالعة

قصّة بقرة بني إسرائيل

في تفسير العياشي: عن البزنطي قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «**إنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له ثمّ أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل ثمّ جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى إنّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً فأخبرنا من قتله قال: إيتوني ببقرة ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[(١)] ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾[(٢)] يعني لا صغيرة ولا كبيرة، ولو أنّهم عمدوا إلى أيّ بقرة أجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[(٣)] ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾[(٤)]**

فطلبوها فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل، فقال: لا أبيع إلا بملء مسك[(٥)] ذهباً فجاؤوا إلى موسى عليه السلام، وقالوا له ذلك، فقال اشتروها فاشتروها، وجاؤوا بها فأمر بذبحها ثمّ أمر أن يضربوا الميت بذنبها، فلمّا فعلوا ذلك حيي المقتول، وقال: يا رسول الله إنّ ابن عمّي قتلني دون من يدّعي عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله فقال لرسول الله موسى بعض أصحابه: إنّ هذه البقرة لها نبأ، فقال موسى: ما هو؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٩.

(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٧٠-٧١.

(٥) المسك: يعني الجلد، ومسك البقرة يعني جلدها.

قالــوا إنّ فتــى من بني إسرائيــل كان بارّاً بأبيــه، وإنّه اشترى بيعا، فجــاؤوا إلى أبيه والأقاليــد (مقاليــد) تحت رأسه فكــره أن يوقظه فترك ذلك البيــع، فاستيقظ أبوه، فأخبــره، فقال له: أحسنت هذه البقرة هي لك عوض لما فاتك، قال: فقال له رسول الله موسى: «**انظر إلى البرّ ما بلغ بأهله**»[١].

(١) تفسير الميزان، ج١، ص٢٠٤.

4

أزواجاً من أنفسكم

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١]

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

تمهيد

بعـد أن تكلّمنا عن الأسرة، النـواة الأولى في تركيب أيّ مجتمـع بشريّ، وقلنا إنّ الحلقـة الأضيـق هي الأب والأمّ، الـزوج والزوجة ثمّ الأولاد وتحدّثنـا عن المسؤوليّة تجاه الأبوين نتكلّم الآن عن مسؤوليّة الزوجين تجاه بعضهما بعضاً.

قـال تعالـى فـي كتابـه المجيـد: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١].

إنّ الـزواج حاجـة فطريّـة غريزيّة طبيعيّـة عند الإنسـان. وهو بحسـب النظرة الإسلاميّـة له هدف سـامٍ، فالإسلام يريد للزواج أن يكـون ناجحاً محتفظاً بعناصر الديمومـة والبقاء والثبات. ومن أسس نجاح الـزواج أن يكون كلٌّ من الزوج والزوجة سكنـاً للآخر (كما ورد في الآية) وهو ما يحقّق الهـدف المنشود من خلال تحصيل الاستقـرار النفسيّ والهدوء والطمأنينة بين الزوجيـن فيكونان عوناً لبعضهما بعضاً على مواجهة تحدّيات الحياة وعوناً على الآخرة.

ولقـد حثّ الإسلام على أصـل موضوع الزواج مقابل فكرة البقـاء على العزوبيّة،

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

وقـد روي عـن النبيّ الأكرم ﷺ: «**ما بني بناء في الإسلام أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من التزويج**»[١].

مقوّمات الزواج الناجح

ومن أجل الوصول إلى زواج ناجح نبّه الإسلام إلى عدّة مسائل وأكّد على مراعاتها، ومن هذه المسائل:

أوّلاً: أكّـد الإسلام على ضـرورة تأسيس الزواج على أُسس صالحة صحيحة، من خـلال الابتعاد عن الإكراه أو إجبار أحد الطرفين على الزواج من الآخر أو الطرفين معـاً، وهو مـا يحصل عادة بسبب علاقـات القرابة مثلاً أو تجميـع الثروات، وهو ما يؤدّي غالباً إلى فشل الزواج. لذلك نجد في الأحكام الشرعيّة نهياً عن إكراه الطرفين الذكـر والأنثى، وضرورة الرضا والقبول بالشريك الآخر لأنّ في هذا الزواج حياتُهما وفيه سعادتُهما.

وكما أكّد الإسلام على ضرورة اختيار الزوجين لبعضهما بعضاً، قام أيضاً بعمليّة إرشاد واسعة جدّاً من منطلق: الأساس الّذي ينطلق منه الفرد لاختيار شريك حياته، بعيـداً عن التقاليد والعادات الجاهليّة، والّتي للأسـف ما زلنا نراها في أيّامنا هذه؛ فالأهـل يذهبـون عـادةً باتجاه الغنـى أو الوجاهـة ويتجنّبون الفقيـر والفقيرة. وقد يبحثون عن جمـال الشكل ومعايير الجسد الخارجيّة. لذلك جاء الإسلام ليؤكّد على صفـة الصلاح في الرجل والمرأة، الّتـي تعني الدين وحُسن الخُلُق والعفّة؛ لأنّ المال لا يدوم، وكذلك الجمال والجاه.

عـن أبـي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا تـزوّج الرجل المرأة لجمالهـا أو لمالها وكل إلى ذلك، وإذا تزوّجها لدينها رزقه الله المال والجمال**»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج١٤، ص٣.

(٢) م.ن، ج٢٠، ص٤٩.

وعن الإمام الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**النكاح رقّ، فإذا أنكح أحدكم وليدة فقد أرقها، فلينظر أحدكم لمن يرقّ كريمته**»[١].

وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[٢].

ثانياً: السعي للوصول إلى سنّ مبكرة للزواج وتسهيل ما قد يعترضه من تعقيدات، إذ يكفي رضا الطرفين ورضا وإذن وليّ الأمر، في شروط معيّنة، ليتمّ عقد الزواج.

وهناك للأسف عادة قديمة ما زالت متّبعة حتّى اليوم وهي غلاء المَهْر، لذا جاء الإسلام ليقول: أفضل نساء أُمّتي من كان مَهْرُها متواضعاً، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أفضل نساء أمّتي أصبحهنّ وجهاً وأقلّهنّ مهرا**»[٣]. فمعيار الزواج الناجح ليس مرتبطاً لا بالمهر ولا بالمال، فالمال لا يشكّل ضمانة؛ لأنّ الزوج الّذي لا يملك الخلق والدين قد يضطر المرأة إلى أن تبذل له مهرها وتزيد عليه حتّى يطلّقها.

إنّ الزواج المبكر يساعد على الثبات والاستقرار والطمأنينة، وإذا كانت بعض الزيجات المبكّرة فاشلة فليس السبب التبكير في الزواج، بل العجلة والتسرُّع، أي عدم حسن اختيار الزوج أو الزوجة، كما هو الحال أيضاً في الزيجات غير المبكّرة.

ثالثاً: لكي يحافظ الإسلام على العائلة عقّد عمليّة الطلاق، ولكنّه لم يسدّ الباب نهائيّاً، كما في بعض المذاهب والديانات الأخرى. فالإسلام فتح باب الطلاق ووضع قواعد له، ومنها أنّه يحتاج إلى شاهدين عَدْلين، ولهذين الشاهدين دور مهمّ في تلطيف الأجواء بين الزوجين المتخاصمين، فقد يعتذر الزوجان عمّا بدر منهما من تسرُّع، ويحلُّ الوفاق محلَّ الطلاق. لقد شرّع الإسلام الطلاق وحلّله على الرغم من

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٧٦.

(٢) م.ن، ج٢٠، ص٧٩.

(٣) الكافي، ج٥، ص٣٢٤.

أنّه أبغض الحلال، وقد روي قوله ﷺ : «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[١]، ذلك أنّ بعض الحالات الزوجيّة لا يحلّها إلّا الطّلاق.

رابعاً: روح العلاقة الّتي يجب أن تكون بين الزوج والزوجة. وللنظر في هذه العلاقة هناك عنوانان: قانونيّ وفقهيّ. فعندما تُعدَّد حقوق الزوجة وتُعدَّد حقوق الزوج، وتُحدَّد واجبات كلّ منهما تجاه الآخر، فهذا ما يُسمّى بالعنوان القانونيّ أو الحقوقيّ. أمّا العنوان الثاني الفقهيّ فهو أرفع من الأوّل، لأنّه العنوان الروحيّ والأخلاقيّ. العنوان الأوّل ليس هو الأصل ولا نلجأ إليه إلّا عندما يكون هناك مشكلة أو نزاع. أمّا العنوان الثاني فهو الأصل الّذي أراد منّا الإسلام أن نقيم بناءنا الزوجيّ على أساسه، وهو قائم على الحبّ والاحترام والتراحم والتعاون والانسجام بين الزوجين حتّى يصبحا كأنّهما نفس واحدة، كما في تعبير الآية القرآنيّة: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣]، وقد روي عن الإمام السجّاد عليه السلام في رسالة الحقوق: «**وحقّ الزوجة أن تعلم أن الله عزّ وجلّ جعلها لك سكناً وأنساً**».

الصبر على الأذى

أمّا الإيذاء فله قدر من العقاب، والصبر على الأذى له قدر من الثواب. فعن الرسول ﷺ : «**من كان له امرأة تؤذيه لم يقبل الله صلاتها ولا حسنةً من عملها حتّى تعينه وترضيه، وإن صامت الدهر...**»[٤]. وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام : «**ملعونة ملعونة امرأة تؤذي زوجها وتغمُّه، وسعيدة سعيدة امرأة تكرم**

(١) كشف اللثام، الفاضل الهنديّ، ج٨، ص٤٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الروم، الآية:٢١.
(٤) بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج٧٣، ص٣٦٩.

زوجها ولا تؤذيه وتُطيعه في جميع أحواله»[١]، طبعاً إلّا في معصية اللّه لأنّه **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**.وفي المقابل، على الرجل مثل ذلك الوِزْر والعذاب إذا كان مؤذياً ظالماً لها، حتّى ولو صام الدهرَ كلَّه.

أمّا الصبرَ على سوء الخُلُق، فعن الرسولﷺ: «... **ومن صبرَ على سوء خُلُق امرأته واحتسبه أعطاه اللّه بكلّ مرّة يصبر عليها من الثواب مثل ما أعطى أيوب** عليه السلام **على بلائه، وكان عليها هي من الوِزر في كلّ يوم وليلة مثل رمل عالج...»**[٢].

الزواج يقرّب إلى اللّه عزّ وجلّ

لقد حصَّن الإسلام المرأة ودعا للمحافظة على حقوقها وكرامتها وموقعيّتها الاجتماعية واحترامها كإنسان له حقوق وعليه واجبات. الإسلام يقول: إذا أقمتم البناء الزوجيّ ـ الّذي تنشده فطرة الإنسان وغريزته ـ على أسس صحيحة فهذا يُعينكم في دينكم ودنياكم وآخرتكم، لذلك أكّدت الروايات على أنّ الإنسان المتزوّج قدرته على تجنّب المعاصي أكبر من قدرة العازب. وذلك لطمأنينتُه وسكون نفسه ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، كما أنّ قيامه وصلاته وصيامه وطاعاته أفضل. والأهمّ من كلّ ما تقدَّم هو تحويل العلاقة الزوجيّة إلى عبادة، وإلى واحدة من المصاديق الّتي تُقرِّب من اللّه عزّ وجلّ.

وأعطى اللّه تعالى العلاقة بين الزوجين بُعداً أخروياً، وبالتالي فهناك عقاب في حال التخلُّف عن الواجبات الزوجيّة أو التّراخي أو الإيذاء. إذاً، أدخل اللّه تعالى مؤسَّسة الزّواج في دائرة الثواب والعقاب الأخروي، وفي هذا الموضوع سألت أُمُّ سلمة ـ كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ـ الرسولﷺ عن فضل النساء في خدمة أزواجهنَّ، فقال لها: **«أيّما امرأة رفعت من منزل زوجها شيئاً من موضع إلى موضع**

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج١٠٠، ص٢٥٣.

(٢) م.ن، ج٧٣، ص٣٦٧.

تُريد به صلاحاً نظر الله عزّ وجلّ إليها، ومن نظر الله إليه لم يُعذِّبه»[١]، وعن الرسول ﷺ: «**أيُّما امرأة خدمت زوجها سبعة أيّام، غَلَق الله عنها سبعة أبواب من النار، وفتح لها ثمانية أبواب من الجنّة تدخل من أيّها شاءت**»[٢].

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ لي زوجة إذا دخلت تلقّتني، وإذا خرجت شيّعتني وإذا رأتني مهموماً قالت: ما يهمّك؟ إن كنت تهتمّ لرزقك فقد تكفّل به غيرك، وإن كنت تهتمّ بأمر آخرتك فزادك الله همّاً، فقال رسول الله ﷺ: بشّرها بالجنّة وقل لها: إنّك عاملة من عمّال الله ولك في كلّ يوم أجر سبعين شهيداً**»[٣].

وفي المقابل، عن الرسول ﷺ قال: «**إنّ الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى فيّ امرأته**»[٤]، وعنه ﷺ: «**جلوس المرء عند عياله أحبُّ إلى الله من اعتكاف في مسجدي هذا**»[٥].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا رحماء فيما بيننا قوّامين بالقسط، منصفين، عطوفين، لا نحيف على أزواجنا ولا نقصّر في الأخذ بأيدي عوائلنا إلى ساحة رضا الله سبحانه، إنّه سميع مجيب.

---

(١) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج ٢٠، ص ١٧٢.

(٢) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٢، ص ١١٨٦.

(٣) مكارم الأخلاق، ص٢١٥.

(٤) ميزان الحكمة، ج٢، ص١١٨٦.

(٥) م.ن.

للمطالعة

الأسوة في بيت الزوجيّة

روي عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: «**دخل علينا رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **وفاطمة** عليها السلام **جالسة عند القدر وأنا أنقّي العدس، قال: يا أبا الحسن، قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: اسمع، وما أقول إلّا ما أمر ربّي، ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلّا كان له بكلّ شعرة على بدنه، عبادة سنة؛ صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب ما أعطاه الله الصابرين، وداود النبيّ ويعقوب وعيسى** عليهم السلام.

يا عليّ من كان في خدمة عياله في البيت ولم يأنف، كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب الله له بكلّ يوم وليلة ثواب ألف شهيد، وكتب له بكلّ قدم ثواب حجّة وعمرة، وأعطاه الله تعالى بكلّ عرق في جسده مدينة في الجنّة. يا عليّ، ساعة في خدمة البيت، خير من عبادة ألف سنة، وألف حجّ، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة، وألف غزوة، وألف مريض عاده، وألف جمعة، وألف جنازة، وألف جائع يشبعهم، وألف عار يكسوهم، وألف فرس يوجهه في سبيل الله، وخير له من ألف دينار يتصدّق على المساكين، وخير له من أن يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن ألف أسير اشتراها فأعتقها، وخير له من ألف بُدنة يعطي للمساكين، ولا يخرج من الدنيا حتّى يرى مكانه من الجنّة.

يا عليّ، من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنّة بغير حساب.

يا عليّ خدمة العيال كفّارة للكبائر، ويطفىء غضب الربّ، ومهور حور العين، ويزيد في الحسنات والدرجات.

يا عليّ، لا يخدم العيال إلّا صدّيق أو شهيد أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة»[١].

(١) مستدرك الوسائل، ج١٣، ص٤٢.

5

الأبناء محبَّة.. ومسؤوليَّة

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا
يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[١]

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

تمهيد

تحدّثنا في الدرس السابق عن الزواج وأهمّيته وذكرنا مقوّمات الزواج الناجح. وفي السياق ذاته واستكمالاً للحديث عن العائلة نصل للحديث عن الأولاد. لقد شملت الروايات الزوجة والأولاد معاً وتحدّثت عن التقرّب من العيال والذود عنهم وإرضائهم.

لقد حثّ اللّه تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم على الزواج والإنجاب لأنّ هذا يشكّل ضمانةً واستمراريّة للبشريّة. وقد ورد أنّه من سعادة المرء أن يكون له ولد صالح يبقى بعده، يفي عنه الدّين ويقضي عنه الصلاة والحجّ، ويهدي إليه ثواب الأعمال. وقد روي أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام مرّ بقبر يُعذَّب صاحبه. وكان للمسيح معجزات كثيرة، منها الاطلاع على ما في القبور. ثمّ مرّ به بعد عام فإذا هو لا يعذّب، فقال: «**يا ربّ، مررت بهذا القبر عام أوّل وكان يُعذَّب صاحبه، ومررتُ به هذا العام، وهو ليس يُعذَّب، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا روح الله، قد أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً، فغفرتُ له بما عمل ابنه**»[1].

إذاً الولد الصالح هو ضمانة للمرء بعد موته. وبالمقابل، فإنّ الروايات نفسها

---

(١) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج١٦، ص٣٣٨.

تقول إنّ «**ولد السوء يهدم الشرف ويشين السلف**»[١]. فالمسؤوليّة تجاه الأولاد كبيرة على صعيد الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٢]. فالإنسان مسؤول عن دنيا أولاده وآخرتهم.

حبّ الأطفال أفضل الأعمال

لقد أكّد الإسلام على قواميّة الحبّ في العلاقة بين الأهل والأولاد بحيث يبرز الوالدان المودّة والرحمة نحو أبنائهما، إلى حدّ التصابي، فقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كان له صبي فَلْيَتصابَ له**»[٣].

وفي الحديث: «**قال موسى بن عمران عليه السلام: يا ربّ، أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال: حبّ الأطفال**»[٤]. مع أنّ هذا شيء فطريّ لكنّ الله تعالى يصبغه بصبغة دينيّة، ويُعطي عليه أجراً، وهذا من كرم الله عزّ وجلّ.

وقد روي أنّه في يوم من الأيّام خرج على الصحابة عثمان بن مظعون ومعه صبيٌّ له يُقبِّله. فرآه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «**ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: أتحبّه يا عثمان؟ قال: إي والله يا رسول الله إنّي أحبُّه، قال: أفلا أزيدك له حبّاً؟ قال: بلى، فداك أبي وأمّي. قال: إنّه منْ يُرضي صبيّاً له صغيراً من نسله حتّى يرضى، ترضّاه الله يوم القيامة حتّى يرضى**»[٥]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله ليرحم العبد لشدّة حبّه لولده**»[٦]. وعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قبّل ولده كتب الله تعالى له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة، ومن علّمه القرآن دُعي بالأبوين فيأتيان**

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج ١٥، ص ٢١٥.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٣) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٣٦٧٠.
(٤) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ١٠١، ص ٩٧.
(٥) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٤، ص ٣٦٦٩.
(٦) الكافي، الكليني، ج ٦، ص ٥٠.

بحلَّتين يضيء من نورهما وجوه أهل الجنّة»[١].

وروي أيضاً أنّ النبيّ ﷺ كان يقبّل الحسن والحسين عليهما السلام، فاستغرب أحدُ الأشخاص، واسمُه الأقرع بن حبوة، تصرُّف النبيّ قائلاً: إنّ لي عشرة أبناء ما قبَّلتُ واحداً منهم قَطّ. فغضب الرسول ﷺ حتّى التمع (تغيَّر) لونُه، وقال للرجل: «**إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك فما أصنع بك؟ من لم يرحم صغيرنا ويعزِّز كبيرنا ليس منّا**»[٢]. هذا هو دينُنا دين الرحمة بالصغار، والتكريم وتقدير الكبار.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: دخلت على النبيّ ﷺ والحسن والحسين عليهما السلام على ظهره، وهو يجثو لهما ويقول: «**نِعمَ الجملُ جملكما، ونِعمَ العِدلانِ أنتما!**»[٣]. وقد تكرّرت هذه الحادثة أمام الصحابة الآخرين، فقال أحد الصحابة: رأيتُ الحسن والحسين عليهما السلام على عاتقي رسول الله ﷺ، فقلت: نعمَ الفرس لكما! فقال رسول الله ﷺ: «**ونِعمَ الفارسان هما**»[٤].

عدم التمييز بين الأبناء والبنات

كانت فكرة وأد البنات منتشرة قبل الإسلام، وكان وجه الجاهليّ يسودّ إذا بُشِّر بالأنثى، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[٥]. فأتى الإسلام وحرَّم هذا الأمر، وأظهر حقوقاً للمرأة طالما كانت محرومة منها، ودعا إلى احترامها كأمّ وأخت وبنت، فعن الرسول ﷺ: «**لا تكْرَهوا البنات، إنَّهنَّ المؤنسات الغاليات**»[٦]. والتجربة تقول إنّه عندما يكبر الوالدان غالباً

---

(١) الكافي، الكليني، ج٦، ص ٤٩.
(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٣، ص ٢٨٣.
(٣) م.ن.
(٤) م.ن.
(٥) سورة النحل، الآيتان: ٥٨- ٥٩.
(٦) ميزان الحكمة، ج٤، ص ٣٦٧٢.

ما تكون الفتيات أكثر عطفاً واهتماماً وبِرّاً بهما. وفي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**من وُلدت له ابنة فلم يؤذها ولم يُهنها ولم يُؤثر ولده عليها أدخله الله بها الجنّة**»[١]. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**نِعمَ الوِلدُ البنات المخدّرات! من كان عنده واحدة جعلها الله له ستراً من النار**»[٢]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**البنات حسنات، والبنون نعمة، فالحسنات يُثاب عليها، والنِّعَم مسؤول عنها**»[٣].

مسؤوليّة التربية والعناية

ومن الأمور الهامّة مسؤوليّة تربية الأولاد وتعليمهم وإصلاح اعوجاجهم إذا اعوجُّوا، وذلك بمحادثتهم وإقناعهم وليس بالضرب، بل بالإفهام، وكذلك بالقدوة الحسنة؛ أي أن يكون الأب والأُمّ قدوة في البيت، فيتأثّر الولد بسلوك أهله وعاداتهم، وكذلك بأخذ الأولاد إلى المساجد وتعليمهم الصلاة وتعويدهم على الصيام منذ صغرهم، وتعليمهم القرآن واصطحابهم إلى مجالس العزاء؛ فإنّ لهذا كلّه تأثيراً كبيراً في تنشئة الأولاد ومستقبلهم.

ثمّ لا بدّ من العناية بالأولاد صحيّاً وجسديّاً، فضلاً عن إطعامهم وإكسائهم، فيوم القيامة سنُسألُ عن هذه الأمور كما نُسألُ عن صلاتنا وصيامنا.

اعدلوا بين أولادكم

لا بدّ من العدل بين الأولاد، فلا يجوز تفضيل ولد على ولد في المعاملة، فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»[٤]. ستُسألون عن التمييز بين أولادكم، وقد يؤدّي ذلك إلى معاصٍ وانحرافات وأحياناً إلى جرائم، ويمكن أن يتحوّل ذلك إلى حسد بين الإخوة فيكيد بعضهم لبعض. فعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**ساوُوا بين**

(١) م.ن.
(٢) م.ن.
(٣) م.ن.
(٤) جواهر الكلام، الشيخ الجواهري، ج ٢٨، ص ١٨١.

أولادكم في العطية، فلو كنتُ مفضلاً أحداً لفضَّلت النساء»[١]. وعنهﷺ: «**إنّ الله تعالى يحبّ أن تعدلوا بين أولادكم حتّى في القُبَل**»[٢].

هكـذا نتصـرّف إذا أردنا أن يكـون لنا أولاد صالحون ليكونوا عونــاً لنا في الدنيا وذخراً في الآخرة.

وهنــاك أولاد هم ذُخر لأهلهم في الآخرة حتّــى قبل موت الأبوين، وهم الشهداء. فمن المعـروف عندنا أنّ الشهداء يُرزقون حقّ الشفاعـة، فعندما يُوتَى بالشهيد إلى بـاب الجنّة يقـف ويقول: لا أدخلهـا إلّا وأبواي معي. فالشهداء فـي ثقافتنا هم ذُخر لآبائهم يوم القيامة، وعزٌّ وكرامة لهم في الدنيا، فطوبى لرحم حمل بهؤلاء العظماء وهنيئاً لأصل تفرّع منه هذا الغصن المثمر إيماناً وتضحيةً وعزّاً وشفاعة.

لماذا هم فتنة؟

يبقــى أن نتحدّث عن شبهة موجودة فــي أذهان الناس، مثلاً هنـاك آيات وروايات تعبّر عــن الأبناء بالفتنــة كقوله تعالــى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[٣]، والفتنــة تعنــي أنّ علينا أن نهـرب منها. هذا شرح خاطـئ. وفي بعض الآيـات والروايـات أنّ الأزواج والأولاد أعداء لكـم. ويأتي أحياناً الشــرح ليقول: لا يجوز أن يجتمع في قلبــك حُبَّان: حبّ الله وحب آخر. فإذا وُجد في قلبك حبّ لوالديك أو لزوجتك وأولادك فهذا يتنافى مع وحدانيّة حبّ الله.

وجواباً عن الشبهة الأولى نقول: الفتنة تعني الاختبار والامتحان. فأموالنا وأولادنا فتنة لنا بمعنى ابتلاء واختبار، فالله تعالى يرى كيف نتصرّف بهذه النِّعَم الّتي أغدقها علينــا، هل في الخيـرات والطاعات؟ أم في الموبقات؟ وكذلك فــي شأن الأولاد، هل نربّيهم تربية صالحة؟ أم نهملهم؟

(١) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٤، ص ٣٦٧٣.

(٢) م.ن.

(٣) سورة الأنفال، الآية:٢٨.

أمّـا الشبهة الثانية – موضـوع الحبّ – فإنّه سبحانه أوجب على الإنسان أن يحبّ والديه، فحبّ الوالدين من حبّ اللّه، وكذلك حبّ الزوجة والأولاد. أمّا عندما يصغي الأبـوان لرغبات أولادهما المحرّمة فيعصيان اللّه تعالى بسبب حبّ الأولاد، فهذا هو الحـبّ الّذي ينافي حبّ اللّه. فالرسول ﷺ وُلد يتيمـاً، وهو يحبّ أهل بيته حبّاً جمّا، ومـع ذلك ففي معركة بدر دفـع إلى المعركة أحبّ النـاس إليـه، ابن عمّه علياً عليه السلام وعمَّه الحمـزة عليه السلام، وصحابة الرسول كانوا يقدّمون أبناءهـم أمامهم ليُقتلوا بين يـدي الرسول ﷺ. وكذلك كان أميـر المؤمنين عليه السلام يقدّم أولاده إلى المعركة، ولم يبخـل بهـم. وأصحاب الإمام كذلـك، فهذا حجر بن عدي (رضـ) رفض التبرُّؤ من الإمـام علـيّ عليه السلام. ولمّا هُدِّد بالقتل قدَّم ابنه أمامـه للاستشهاد، لأنّه خشي إن هو قتل أوّلاً أن يضعف قلب ابنه فيتبرَّأ من أمير المؤمنين عليه السلام!

وختامـاً نسأل اللّه سبحانه وتعالى ما سأله إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾(١).

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٠ـ٤١.

للمطالعة

حبّ الأبناء في كربلاء

عندما نتأمل في واقعة كربلاء فإنّنا نرى سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام قدَّم للشهادة أولاده وإخوانه وأصحابه وهم من أحبّ الناس إليه، ولم يبخل بأحد منهم. وأوّل من أذن له في القتال ابنه عليّ الأكبر، هذا الشاب الّذي كان الحسين عليه السلام وكلّ أهل البيت عليهم السلام يحبّونه حبّاً شديداً لأنّه أشبه الناس برسول الله خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً. فعندما استشهد عليّ الأكبر عليه السلام قال الحسين عليه السلام: «**على الدنيا بعدك العفا يا بنيّ**»[1]. هذا فلذة كبد الحسين عليه السلام، ولكنَّ حبّه له لم يمنعه من تقديمه للشهادة إعلاءً لكلمة الله وإعزازاً لدينه. إنّ هذا الحبّ هو عين حبّ الله.

في حبّ الله[2]

عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا أحبّ الله عبداً من أمّتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكّان عرشه محبّته ليحبّوه، فذلك المحبُّ حقّاً. طوبى له ثمّ طوبى له، وله عند الله شفاعةٌ يوم القيامة**».

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**حبّ الله نارٌ لا يمرُّ على شيء إلا احترقه ونور الله لا يطلع على شيء إلا أضاء...**».

(١) إقبال الأعمال، ابن طاووس، ج ٣، ص ٣٤٣.

(٢) مصباح الشريعة، ص١٩٢.

6

الصدقة

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ
وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[١]

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

تمهيد

من أهمّ المواصفات أو الصفات الّتي أحبّها الله سبحانه وتعالى وأرادها في عبده المؤمن إلى جانب إقامة الصلاة، الّتي هي – معراج المؤمن – صفة الإنفاق، وقد ورد هـذا المعنى في القـرآن الكريم إمّا بتعابير الإنفـاق ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾[١]، أو بتعابير إيتاء الزكاة: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢]، أو بتعابير الصدقة والتصدّق و﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾[٣]. لكـن، حتّى لا نكرّر الكلمات فلنقل التصدّق، لأنّ عنوان الصدقة هو عنوان واسع جدّاً.

طريق تزكية النفس

التأكيـد القرآنيّ والنبويّ على موضوع التصدّق هـو تأكيد كبير، والرسالة الإلهيّة السماويّة – من خلال تركيزها على هذه الصفة – تريد أن تحقّق غرضين أو هدفين دفعةً واحدة:

الغرض الأوّل يتعلّق بنفس الإنسان، لأنّ الإنسان الّذي يُنفق ويتصدّق ويُعطي من مالـه ويُجاهد بماله – هذا الإنسان – يتطهّر ويتزكّى من خلال هذا الإنفاق. ولذلك،

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٦١ ـ ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٢) سورة المائدة: الآية: ٥٥.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٨.

ورد في الآية الكريمة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١].

هنــاك الكثير من المؤمنين الّذين يهتمّون بالسيــر والسلوك والأعمال الّتي تقرّب إلــى الله سبحانــه وتعالى، ولكن بنفس الوقت يمكن أن يتطرّقــوا إلى أعمال قد تكون شاقّة جسديّاً. في حين أنّ الله سبحانه وتعالى وهو الأعلم بالنفس الإنسانيّة دلّنا على طريــق للتزكية والتطهّــر يحتاج سلوكه إلى كثير من العنــاء، وهذا الطريق هو طريق الإنفــاق في سبيل الله، والّذي ينتج عنه طُهر روحيّ ومعنويّ في الدنيا ومقام عليّ في الآخرة.

وعندما ننفق، فنحن المستفيدون في الدنيا قبل الآخرة، فقد يظنّ البعض ممّن لا يؤمن بالغيب أنّه لو أنفق من هذا المال الّذي بحوزته وأعطى منه فقيراً أو محتاجاً فإنّ مقدار هذا المال الموجود لديه سينقص- وذلك طبعاً بحسابات أهل الدنيا-إلا أنّــه في الواقع وحقيقة الأمر فــإنّ هذا المال يزيد بتزكية الله لــه وجعل البركة فيه، يقــول تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[٢]، بل ودفع البلاء الّذي قد يكلّفني الكثيــر من مالي الّذي احتفظت به ولم أنفق بعضاً منــه، كأن أمرض مرضاً شديداً، كان بإمكانــي دفعــه لو أنفقت في سبيل الله، وقد ورد عــن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**الصدقة تدفع البلاء المبرم فداووا مرضاكم بالصدقة**»[٣].

من المسؤول؟

الغرض الثانــي هــو المساهمــة فــي معالجــة المشــاكل الاجتماعيّــة المعيشيّة المستعصيــة الّتي يعيشها الناس عموماً منذ بدء الخليقة إلى الآن وإلى يوم تكون لله تعالــى فيه مشيئة أخرى. في كلّ مجتمع بشريّ فقــراء وأغنياء، مكتفون ومحتاجون، وأناس قادرون على العمل وآخرون عاجزون عن العمل، وإلخ.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٧٦.

(٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٢، ص٤٣٣.

فـي الفهـم الإسلاميّ، الدولة مسؤولـة والمجتمع الّذي يعيش فيـه هؤلاء الفقراء والعاجـزون والأيتام والمساكين هو أيضـاً يتحمّل مسؤوليّة من هذا النوع، وأمّا ثقافة إيتاء الزكاة والتصدّق والإنفاق والجهاد بالمال ورعاية أو تكفّل الأيتام وقضاء حوائج المحتاجين وما شاكل، فهي لتعالج جانباً كبيراً من هذه المشكلة، ولكن بخلفيّة ثقافيّة إيمانيّة أخلاقيّة إنسانيّة، وهذا ما ورد الحثُّ عليه في الكثير من الآيات والروايات.

يُربي الصدقات

اللّه سبحانـه وتعالى – من باب الترغيـب للمتصدّقين – يقول لهم: أنا الّذي آخذ منكـم الصدقـات بشكل مباشر، الصدقة تقع في يد اللّه قبل أن تقع في يد الفقير أو المحتاج أو اليتيم: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]. وقد ورد في الروايات ما يؤكّد هذا المعنى.

ومن بـاب التشجيع أيضاً، وعد اللّه سبحانه وتعالى فـي القرآن المجيد بأنّه هو الّـذي يربي الصدقـات. عندما يدفع الواحد منّا صدقة، هـذه الصدقة تنمو وتنمو إلى أن يحشر يوم القيامة، فيفاجأ يوم القيامة كأنّه تصدق بمثل جبل أحد كما ورد فـي بعض الروايات، في حين أنّ كلّ مـا تصدّق به هو فقط هـذا المبلغ المتواضع الّـذي خـرج منه. لكـنّ اللّه سبحانه وتعالى وعد بـأن يربي الصدقـات وأن ينمّيها تشجيعـاً علـى الإنفـاق لعباده. وقـد ورد عن الرسـول ﷺ : «**تصدّقوا ولـو بشقّ تمـرة، واتقـوا النار ولو بشـق تمرة، فإنّ اللّه عزّ وجلّ يُربيهـا لصاحبها كما يُربي أحدكـم فصيلـه حتّـى يوفيـه إيّاهـا يوم القيامـة، وحتّـى يكون أعظم مـن الجبل العظيـم**»[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٩٣، ص١٢٢.

وفـي الحديـث القدسـيّ، عن أبي عبـد الله الصـادق عليه السلام أنّه قـال: «**قال الله تعالـى: إنّ مـن عبادي مـن يتصدّق بشقّ تمـرة فأربيها له كما يُربـي أحدكم فلوَه، حتّى أجعلها مثل جبل أحد**»[١].

من بركات الصدقة

هنـاك روايات كثيرة تتحدّث عـن آثار الصدقة، فقد ورد علـى سبيل المثال أنّها «**تدفـع البـلاء ويتداوى بها من الأمراض**» كما مرّ معنا. وهي «**تدفع ميتة السوء**»، وحيـث إنّ الإنسان سيمـوت ولا مهرب من المـوت. فإنّ هناك أشـكالاً للموت، فتارةً هناك الموت الّذي هو قتل في سبيل الله، وموت على الفراش أو بحادث سيارة أو عن طريـق الخطأ إلخ... الصدقـة تدفع عن الإنسان ميتة السوء. وورد أيضاً أنّ الصدقة «**تطيـل العمـر**» وأنّها «**مفتاح الرزق**»، يقـول تعالـى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]. وقـد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بعض الذين سُدّت عليهم أبـواب الرزق بالتصدّق لينظـر الله سبحانه وتعالى إليهم نظـرة رحمة ورأفة ويفتح لهم أبواب رزقه.

عطاء بلا حساب

وللتشجيـع أيضاً على تحقيق الغرض الثانـي (أي المساهمة في معالجة المشاكل الاجتماعيّـة)، نجد بأنّ الإسلام لم يشجّع فقـط المتصدّقين أنفسهم، لأنّ الإسلام يعـرف أنّـه سيأتـي يوم مـن الأيّام لا يستطيـع الواحد منّـا أن يقوم بمبـادرة فرديّة للتصـدّق، وأنّـه سيأتي يـوم تصبح فيه مؤسّسـات ضخمة تعمل في هـذا الموضوع. ولذلـك نجد بـأنّ الأجر والثواب الّذي وعد به المتصدّق وعـد به أيضاً من يسعى في

---

(١) م.ن.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

تأمين الصدقة، ومن يحمل الصدقة من المتصدّق إلى اليتيم أو المحتاج أو الفقير. فقد روي عن رسول الله ﷺ «**من مشى بصدقة إلى محتاج كان له كأجر صاحبها من غير أن ينقص من أجره شيء**»(١) ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ . الله سبحانه وتعالى يعطي بلا حساب، وتكفّل للساعي في تأمين الصدقة وبإيصالها للمحتاجين بثواب وأجر المتصدّق نفسه دون أن يُنقص شيءٌ من أجر هذا المتصدّق. وورد أيضاً في رواياتنا حول مفهوم الصدقة في الإسلام الكثيرُ من أخلاقيّات وآداب هذا السلوك وهذه الممارسة وهذه الفريضة وهذا العمل المستحبّ، فيما يتحدّث عن صدقة السرّ أو العلن وأولويّة ذوي الأرحام .

خيرٌ من الصدقة

ومن أهمّ الأمور الّتي تعبّر عن هذا البعد الأخلاقيّ والإنسانيّ في التشريع الإسلاميّ هو حرمة إلحاق المنّ والأذى بمن نعينهم أو بمن نساعدهم، وهذا يؤكّد أنّ الغرض في الحقيقة والخلفيّة الأساس هي خلفيّة أخلاقيّة وإنسانيّة. لذلك، قال الله سبحانه وتعالى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾(٢).

نعم، هناك الكثير ممّن يتصدّقون أو يساعدون، أو مثل بعض الدول الّتي تقدّم المساعدات والمعونات لجهة معيّنة، ثمّ فيما بعد يلحق بهم من الأذى والمنّ ما يذهب بماء وجوههم جميعاً. بينما ركّز الإسلام على حفظ ماء وجه اليتيم والمحتاج والفقير الّذي نتصدّق أو ننفق عليه أو نساعده في الحقيقة. ولعلّ هذا أيضاً أحد إيجابيّات أو خلفيّات صدقة السرّ. حتّى أنّه ورد في بعض الروايات في الآداب أنّك عندما تعطي مالك للفقير لا تنظر إلى وجهه، حتّى لا يخجل ولا يستحي منك فحاول الإسلام إلى هذا الحدّ أن يُراعي كرامة أولئك الّذين تمتدّ إليهم اليد لمعونتهم ولمساعدتهم وسدّ حوائجهم.

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٩٢، ص١٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

يقول سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[١]. عندما تتصـدّق على إنسان ثمّ تمـنّ عليه وتؤذيه فقد أبطلت صدقتـك ولم يعد لها أجر ولا ثـواب ولا مكان ولا معنى. وهـذا يؤكّد أنّ حرص الإسلام علـى الكرامة الإنسانيّة هو أشـدّ بكثير من حرص الإسلام على أن يملأ بطن الجائع. ولذلك، قالت الآية: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ ﴾[٢]. فكرامـة الإنسان أهمّ من جوعه أو شبعـه، ولذلك، إن كنت تريد أن تشبع بطنـه عليك أن تحفظ الأهمّ، وهو كرامة هذا الإنسان.

عندما يصبح في كلّ دكّان وفي كلّ بيت مكان للصدقة، وصندوق للصدقة، وعندما تنتشر ثقافة الصدقة بين الناس، هذه الأموال المتواضعة والبسيطة تتراكم، وعندما تتراكم هذه المبالغ تستطيع أن تحلّ مشكلة عدد كبير من العائلات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المتصدّقين، ويتقبّل منّا القليل، ويعوّضنا بالكثيـر، ويعجّل لنا ظهور الدولة الكريمة حتّى لا يبقى موضعٌ للصدقة، حيث يملؤها صاحب العصر والزمان عجّل الله فرجه الشريف قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، إنّه سميع مجيب.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

للمطالعة

في رحاب الصدقة[1]

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أكثر من صدقة السرّ فإنّها تطفئ غضب الربّ جلّ جلاله**»

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**سبعة في ظلّ عرش الله عزّ وجلّ يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: إمام عادل، وشابّ نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل تصدّق بيمينه فأخفاه عن شماله، ورجل ذكر الله عزّ وجلّ خالياً ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل لقي أخاه المؤمن فقال: إنّي لأحبّك في الله عزّ وجلّ، ورجل خرج من المسجد وفي نيّته أن يرجع إليه، ورجل دعته امرأة ذات جمال إلى نفسها فقال:** ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾».

روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ صدقة النهار تُميث الخطيئة كما يُميث الماء الملح، وإنّ صدقة الليل تطفئ غضب الربّ جلّ جلاله**».

وعنه عليه السلام قال: «**من تصدّق حين يُصبح بصدقة أذهب الله عنه نحس ذلك اليوم**».

وعنه عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «**سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: على ذي الرحم الكاشح[2]**».

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من تصدّق في شهر رمضان بصدقة صرف الله عنه سبعين نوعاً من البلاء**».

وعنه عليه السلام: «**الصدقة يوم الجمعة تضاعف أضعافا**».

عن أبي جعفر عليه السلام عن أمّ سلمة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**صنايع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة خفيا تطفئ غضب الربّ، وصلة**

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٩٣، باب الصدقة.

(٢) الكاشح: الذي يُضمر لك العداوة.

الرحم زيادة في العمر، وكلّ معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة، وأوّل من يدخل الجنّة أهل المعروف».

8

تحدّيات الشباب

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١)

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣-١٠٤.

تمهيد

من أعظم المشاكل الّتي يواجهها الناس اليوم، وبالأخصّ جيل الشباب، هي حالة الاضطراب النفسيّ، والقلـق، والارتباك، الّتي توصل إلى الحيرة أو الضياع، ويحاول البعض منهم أن يعالج هذه الأوضاع النفسيّة بأساليب خاطئة أو ملتوية.

فـي يومنا هـذا، كلّ ما حول الإنسـان يضغط عليـه: البيئة، الوضـع الاجتماعيّ، الأوضاع المعيشيّة، الفقر، الحاجة، المرض، عدم قدرة الإنسان على تلبية احتياجات العائلـة وحتّى الاحتياجات الشخصيّة الّتي باتت في هـذا الزمان أكبر وأعظم بكثير من الأزمنة الماضية.

هجمة إفساد مبرمجة

مـن الضغـوط الكبيرة أيضـاً ما يُحيط بنا مـن هجمة فساد وإفسـاد لا مثيل لها فـي تاريـخ البشريّة. على مرّ التاريخ عمـل شياطين الإنس والجنّ علـى نشر الفساد ليقطعـوا طريق البشر ويمنعوهم من الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، ومن الوصول إلـى سعادتهم وكمالهم في الدنيا وفي الآخرة. ومارسـ كذلك الطواغيت والنماردة والفراعنة الإفساد المبرمج والممنهج ليحموا من خلاله عروشهم.

ولكن، لم يمرّ على الأجيال طوال تاريخ البشريّة ما يواجهه جيل اليوم؛ من هجمة

إفسـاد بالصـورة وبالصوت وبالمكتوب وغيره، وفي الشـارع وفي السيّارة وفي البيت وعلى حوافّ الطرقات وحيثما ذهب، مخاطبة حواسه وعقله وقلبه وبكلّ وسيلة، يقول تعالـى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

هنـاك هجمـة قويّة وشرسـة وهي بالتأكيد ليسـت عفويّة، فيها مـن يُخطّط ومن يُبرمـج ومن يُدير عمليّـة الإفساد الواسعة في العالم. هناك من يريد للعالم أن يكون فاسداً، وغير إنسانيّ، بل أن يكون حيوانيّاً. هناك من يريد للناس ألّا يكونوا عقلانيّين بل أن يكونوا شهوانيّين، وهناك من يُناسبه أن يكون الناس على هذه الشاكلة ليتمكّن من أن يحكم العالم، لأنّه حينئذٍ لن يكون أمام بشريّة واعية وعاقلة ذات إرادة وعزم، ولـن يكـون حينئذٍ أمام أناس تعني لهـم الكرامة والحريّة والعـزّة والشرف والعِرض والآخرة شيئاً على الإطلاق.

حالة ملفتة

فـي بدايات القـرن الماضي، بيـن النجف وكربـلاء المدينتيـن المقدّستين، كانت هنـاك منطقة تعيش فيها عشائر يغلب عليها عموماً طابع التديّن والحفاظ على مسائل العِرضـ والشرف والكرامـة والعلاقات الاجتماعيّة المضبوطـة والمحترمة، لوحظ في سنـوات قليلـة أنّ هناك ظاهرة بغاء بدأت تنتشر في هـذه المنطقة، وظنّ بعض الناس للوهلة الأولى أنّ هذه نشأت هنا وهناك بالصدفة .. ولكن لأنّ هذه الظاهرة كانت تشكّل صدمة لسكّان تلك المنطقة اهتمّ بعض العلماء وبعض المحقّقين في معرفة الخلفيّات.

وكانـت النتيجة أنّ بيتاً في تلك المنطقة له ارتبـاط بجهة صهيونيّة هو الّذي كان يقـف خلـف انتشار حالة وظاهـرة البغاء في منطقـة عشائريّة متديّنـة، في منطقة العتبات المقدّسة.

(١) سورة الروم، الآية:٤١.

هـل هذا يحصـل بالصدفة؟ هل جاء هذا البيت، تـاركاً كلّ بلدان العالم ليسكن بين تلك القرى بالصدفة؟ أم أنّ هذا شيء مخطّط له مسبقاً؟

لا تفرّوا من الفساد إلى الفساد

وإذا أخذنا الموضوع المعيشيّ والاجتماعيّ والموضوع السياسيّ والأمنيّ وموضوع الإفساد، كلّ هذا يشكّل ضغطاً على جيل الشباب بالخصوص، لأنّ حاجاتهم تكون في ذروة النشاط وفـي ذروة الحيويّة. وبالتالي، البعض يفرّ من الشيطان إلى الشيطان، يفـرّ من الفساد إلى الفسـاد، أي أنّه في نهاية المطاف يستسلـم. البعض يحاول أن يواجـه هذه الأوضاع بالتهرّب مـن المسؤوليّة، فيلجأ إلى إدمـان المخدّرات والخمر أو القمـار وسهر الليالي الطويلة في النوادي الحمراء، فيصبح إنساناً لا مبالياً اتجاه نفســه واتجاه عائلتـه واتجاه مجتمعه. البعض يقدم على الانتحـار. البعض يلجأ إلى الجريمـة والقتل والعصابات والمافيات والسرقة واللصوصيّة وما شاكل؛ اللجوء إلى هـذا النوع من المعالجات في الحقيقة يزيد في تدميـر المجتمع والعائلة، وهو أشبه بمن يرمي على النار وقوداً لتزداد اشتعالاً، بدل من أن يرمي عليها ماءً ليطفئها.

فــي ظلّ هذه الأجواء الّتــي نعيشها، يجب أن نواجه هــذه الاستحقاقات بمسؤوليّة وبجدّيّــة، لأنّ المسألــة هنــا لا تقف عنــد النتائج الدنيويّــة. إنّ الموضــوع في نهاية المطاف لا يقف عند حدود هذه الدنيا الّتي يعيش فيها النـاس وتنتهي القصّة، فليقتل مــن يقتل، ولينتحر من ينتحــر، وليتألّم من يتألّم، وليُدمن من يدمن، ولتجتح جيوش شعوبــاً، ولتعشـ الأرض ظلماً واستكبـاراً واستعباداً وطغيانــاً، ولا مشكلة. بل إنّ هذه الدنيا أصلاً هي دنيا منقضية والمسألة تتعدّى المسؤوليّة في الدنيا إلى الآخرة، إلى يوم الوقوف الطويل بين يدي الله سبحانه وتعالى الّذي سيسأل كلّ واحد منّا، كلّ فرد منّا عن حياته وسلوكه وأقواله وأفعاله وأدائه ومسؤوليّاته في الدنيا. ماذا فعل؟ ماذا قال؟ كيف عاش؟ كيـف واجه المسائل والتحدّيات؟ علاقته مع نفسه، مع عائلته، مع

جيرانــه، مع محيطه، في السلم وفــي الحرب، في التحدّيات وفي الأخطار. وبالتالي، هناك مسؤوليّة كبيرة.

ليس الحلّ أن تهرب إلى المخدّرات، وإلى الخمر، وإلى الانتحار. بعض المساكين يتصــوَّر أنه عندما يلجأ إلى الانتحار يرتاح بهــذه الوسيلة. من قال إنّه ارتاح؟ إنّ كلّ مــا يمكــن أن يعيشه الإنسان من آلام وأحزان في هذه الدنيا لا يقاس ولا يساوي شيئاً أمــام عــذاب الله وسخطه وغضبه، الّــذي يطال العاصيــن والمنحرفين والخاطئين والمذنبين.

قال تعالــى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

الحلّ في اللجوء إلى الله تعالى

أهــمّ ما فــي الدِّين هو أنّه يعطينــا، حتّى في أشــدّ الظروف والأوضــاع الصعبة، الطمأنينــة وهــدوء النفس والاستقرار والسكينة والأمــل والرجاء. ولا يوجد شيء في هذا الوجود يمكنه أن يمنح الإنسان هذا المستوى في مواجهة المشاكل و الصعوبات و المآسي والأحزان غير الدين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٢). أيّاً تكن المأساة والأحــزان والمعاناة الّتي تعيشها بسبب ظروف شخصيّــة أو اجتماعيّة أو سياسيّة أو أمنيّة أو تهديدات أو جوع أو فقر، وغير ذلك .. عندما تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، عندمــا تذكــر الله سبحانه وتعالى وتعود إلــى الله عزّ وجلّ، عندمــا تجلس بين يدي الله سبحانــه وتعالــى لمناجاته ولدعائه، يمكنــك أن تشكي لــه كلّ آلامك ومعاناتك وصعوباتــك وأحزانك ومآسيك . وهنا، أنت لا تتكلّم مع فقير مثلك، حين تقول له أنا

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣-١٠٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

فقير، فيجيبك: أنا فقير مثلك... أنت لا تشكو إلى مثيل لك ولا حتّى إلى قادر أو غنيّ محدود القدرة ومحدود الغنى، أنت تشكو إلى الله سبحانه وتعالى، وتتحدّث مع الله سبحانه وتعالى، وتلجأ إلى الله سبحانه وتعالى الغنيّ القادر العالم الّذي يعلم ما في أنفسنا، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، والقادر الكريم؛ لأنّه يوجد قادر من الممكن ألّا يساعدك، والغنيّ الجواد؛ لأنّه ممكن أن يكون هناك غنيّ ولا يمدّ لك يد العون.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

وعن النبيّ ﷺ: لا تعجزوا عن الدعاء، فإنّه لم يهلك مع الدعاء أحد. وليسأل أحدكم ربّه؛ حتّى يسأله شسعَ نعله إذا انقطع. واسألوا الله من فضله فإنّه يحبّ أن يُسأل. وما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله تعالى بها إحدى ثلاث: «**إمّا أن يعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة، وإمّا أن يكفّ عنه من الشرّ مثلها، قالوا: يا رسول الله إذن نكثر، قال: الله أكثر**»[2].

أنت تتكلّم مع من بيده ملكوت السماوات والأرض، تناجيه وتلجأ إليه. هذا اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، أولى نتائجه السريعة الهدوء والطمأنينة والسكينة. مهما فتّشتم في علم النفس التربويّ والاجتماعيّ ولدى أطباء النفس وغيرهم فلن تجدوا هذا العلاج عند أحد، ولكنّكم ستجدون العلاج عند محمّد بن عبد الله ﷺ وفي آيات الله الّتي أنزلت على قلبه الشريف، وفي الآيات الكريمة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[3]، كيف نواجه هذا النقص وهذا البلاء وهذه المحنة في الأموال، في الأنفس، في الثروات؟!

(١) سورة البقرة، الآيتان:١٨٦.

(٢) الدعوات، الراوندي، ص١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٥ ـ ١٥٦.

«**إنـا لله**» ليسـت مجـرد كلمـة تقال؛ «**إنـا لله**» تعني نحـن مُلك له، ونحـن عبيده؛ نواصينـا بيده، يفعل بنا ما يشاء. «**إنا لله وإنا إليـه راجعون**» فعندما نكون عبيداً له، نرضى بما يرضاه لنا، نرضى ونهدأ ونطلب منه أن يُعيننا، وأن يدفع عنّا البلاء، وأن يرفـع عنّا الامتحان، وأن يُعطينا الصبر والثبات والنجاح والنصر والعزّة. «**وإنا إليه راجعـون**» عبارة تقول لنا إنّ هذه الحياة الّتي نعيشها هي حياة محدودة، وبالتالي، لا تستحقّ أن تضيّع آخرتك من أجل بعض المحن وبعض الصعوبات وبعض الأحزان في الدنيا، فترتكب المعاصي والذنوب وتفرّ من الشيطان.

الدواء في بيوت الله

يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[(١)].

المساجـد، هذه المؤسّسـات العباديّـة الإيمانيّة التربويّة هي شفـاء للناس و هي حاجـة روحيّـة ونفسيّة واجتماعيّـة وأخلاقيّة، هي حاجـة جهاديّة وسياسيّـة وأمنيّة أيضـاً؛ في بيوت الله عـزّ وجلّ، نقرأ القـرآن ونستمع إلى الوعـظ والإرشاد ونتعرّف علـى حقائق الوجود، فنفهـم معنى الدنيا ومعنـى الآخرة، ومعنـى الامتحان ومعنى البلاء، ومعنى الصبر ومعنى تحمّل المسؤوليّة. في بيوت الله عزّ وجلّ، نشحذ الهمم والعزائـم والإرادات؛ في بيوت الله عزّ وجلّ، نحمل روح الإنسانيّة ونجسّدها ونعمّقها فـي أرواحنا وفي أنفسنـا. في بيوت الله عزّ وجلّ، نداوي قلوبنـا وجروح أنفسنا الّتي تطالها السهام من كلّ حدب وصوب، وبالدرجة الأولى نحصل على هذا الهدوء وعلى هذه الطمأنينة. في الدِّين وفي بيوت الله يتحصّل لنا الأمل .

نعـم، الدين والنبـيّ وآيات القرآن هي القـادرة على أن تمنح هـذا الأمل. الإمام الخمينـيّ رضوان الله تعالى عليه قبل خمسين سنـة أو ستين سنة، كان يقول للشاه: «**كلّمـا عمّرنـا في قرية أو في مدينة مسجداً يمكنكم أن تقلّلوا عدد المخافر وعدد**

(١) سورة الأعراف، الآية:٣١.

الـدرك وعـدد قوى الأمن»، لمـاذا؟ لأنّه عندما تتربّى الناس علـى التديّن، سيشكل ذلـك حاجـزاً ورادعاً ذاتيّاً عـن القتل، والسرقـة، والغشّ، والظلـم، والتجسّس على الآخرين، وإيذاء الآخرين.

المسؤوليّة في هذه المرحلة الصعبة والخطرة هي أن نلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، أن نتمسّـك بديننا وثقافتنا وقيمنا، أن نثق بالله سبحانه وتعالى، أن نعرف أنّ أمامنا آمـالاً كبيرة نحن قادرون على تحقيقهـا، أن نستعين بثقافتنا وتعاليمنا وقيمنا لنكون مـن أصحاب الأنفس المطمئنة الواثقـة الشجاعة المريدة العازمـة. ونحن قادرون علـى تجاوز كلّ هذه الأخطـار إذا تحمّلنا المسؤولية وكنّا أصحـاب الوعي وأصحاب الأمـل، وكنّا أوّلاً وآخراً من اللاجئين إلـى الله، مستعيذين به في مواجهة الشيطان، مستعينين به على مواجهة التحدّيات.

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[1].

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

للمطالعة

نعمة العقل[(١)]

عن محمّد بن سليمان الديلمي، عن أبيه قال: «**قلت لأبي عبد الله** عليه السلام **: فلان من عبادته ودينه وفضله؟ فقال: كيف عقله؟ قلت: لا أدري، فقال: إنّ الثواب على قدر العقل، إنّ رجلا من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشجر ظاهرة الماء وإنّ ملكاً من الملائكة مرّ به فقال يا ربّ أرني ثواب عبدك هذا، فأراه الله [تعالى] ذلك، فاستقلّه الملك، فأوحى الله [تعالى] إليه: أن اصحبه فأتاه الملك في صوره إنسيّ فقال له: من أنت؟**

قال: أنا رجل عابد بلغني مكانك وعبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك، فكان معه يومه ذلك فلمّا أصبح قال له الملك: إنّ مكانك لنزه، وما يصلح إلّا للعبادة، فقال له العابد : إنّ لمكاننا هذا عيباً. فقال له: وما هو؟ قال: ليس لربّنا بهيمة، فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع، فإنّ هذا الحشيش يضيع، فقال له [ذلك] الملك : وما لربّك حمار؟ فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش، فأوحى الله إلى الملك: إنّما أثيبه على قدر عقله».

---

(١) الكافي، الكليني، ج١، ص١٢.

9

العلم والدين

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1]

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

تمهيد

فــي الزمن الّذي تشنّ فيه الحمــلات الإعلاميّة المعادية لتقديم الدِّين والإسلام على وجه الخصوص كدين للتخلّف والجهل والتعصّب والخرافة والرجعيّة وما شاكل، مــن المحزن أن نحتاج لنتكلّــم ونستدلّ وندافع عن أمر واضــح وبيِّن لكلّ ذي لبٍّ في معركــة يمتلــك فيهــا خصومنا - قــوى الاستكبار فــي العالم- كلّ عناصــر الدعاية والإعلام ومراكز الدراسات.

اللهُ تعالى مصدرُ العلم

أنــزل الله سبحانه وتعالى الكتب السماويّة، وبعث الأنبياء والرسل - قادة الدين- إلى البشريّة لهدايتهــا وتوعيتها وإنذارها، يقول تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2] فــالله سبحانه وتعالى هو الّــذي علم الإنسان ما لم يعلم، فالدين مصدره الله والعلم مصدره الله.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

إلا أنّ هناك من يصرّ على فرضيّة الصراع بين الدِّين والعلم، ويعتبر أنّهما لا يجتمعان بل إنّ هناك تناقضاً بينهما. إلا أنّ الواقع والتاريخ يكذبان هذه الفرضيّة؛ فالأنبياء والرسل عليهم السلام لم يكونوا فقط مبلّغي رسالات الدين، بل كانوا أيضاً معلّمي البشريّة في الكثير من مجالات العلم بل إنّ العلماء الألبّاء عجزوا أمام معارف الأنبياء الموهوبة من اللّه تعالى وهذا ما نراه جليّاً في أحوال نبيّ اللّه عيسى بن مريم عليه السلام حيث أحيا بعلمه الإلهيّ الموتى وشفا الأعمى والمرضى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[١].

أمّا مكانة العلم والعلماء في القرآن والروايات فإنّها ممّا تعجز به كلماتنا عن الإحاطة ببعض من شأنه أو شيء من مقامه ويكفينا قول اللّه سبحانه: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[٢] وبذلك نتبيّن أنّه ما من دين أو عقيدة أو فكر أو حضارة تحدّثت عن العلم والمعرفة ومكانة العلماء وحثّت على طلب العلم وبيّنت قيمة ودرجة وأثر العلم في الدنيا وفي الآخرة كما فعل الإسلام العظيم وخاتم النبيّين محمّد بن عبد اللّه صلى الله عليه وآله وسلم. ولم يكن أحدٌ قبل رسول الإسلام قد خطر في باله أن يجعل فداء الأسرى الّذين وقعوا في يد المسلمين في معركة بدر بأن يعلّم كلّ أسير عشرة من المسلمين! حتّى الفدية أراد صلى الله عليه وآله وسلم أن يوظّفها في خدمة العلم والتعلّم والمعرفة.

وصيّة الأنبياء والكتب السماويّة

ونحن إذ نؤكّد على هذه الحقيقة الإسلاميّة الراسخة وهذه المكانة العالية للعلم والعلماء والمتعلّمين والمعلمين، لا نتحدّث عن العلوم الدينيّة فقط كما قد يشتبه البعض، بل نتحدّث عن كلّ علم ومعرفة تقرّب الإنسان من اللّه سبحانه وتعالى،

(١) سورة آل عمران: الآية:٤٩.

(٢) سورة المجادلة، الآية:١١.

وتجعـل الإنسـان في خدمة أهله ومجتمعه وأمّتـه وكلّ البشريّة. كلّ علم نافع من هذا النـوع هو العلم الممدوح، هـو العلم الّذي يرفع أهله درجات فـي الدنيا وفي الآخرة، وهو العلم الّذي وصّى به الأنبياء والرسل وكتب الله السماويّة.

نحـن كمسلمين نقدّم جوابـاً واقعيّاً وعمليّاً. نعم، إن كانـت هناك بعض التجارب الّتي تنسب نفسها إلى الإسلام قد ارتكبت أخطاءً قاتلة من هذا النوع، فالّذي يتحمّل المسؤوليّـة هم أصحاب هذه التجربة، وليس الإسلام ولا نبيّه ولا قرآنه الّذي من أوّل آيـة فيه إلى آخر آية يمتلئ بالمعرفة والعلم والحديـث عن الإنسان -الذكر والأنثى- فـي هذه الرحلة العظيمـة وفي هذا الكدح الطويل إلـى الله سبحانه وتعالى. هذا هو الجواب العملي. لا نحتاج إلى التنظير ولا إلى الاستدلال ولا إلى القول بأنّ الإسلام هو ليس كذلك. القرآن يقول هذا والأحاديث تؤكّد هذا المضمون أيضاً.

ومـا أروع هذا الحديث الّذي نختـم به هذه الفقرة وبه نتبيّن عظمة العلم ومكانته الحقيقيّـة في الإسلام، فعن أبي بصير قـال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**كان أميـر المؤمنيـن عليه السلام يقول: يا طالـب العلم إنّ العلم ذو فضائـل كثيرة: فرأسه التواضـع، وعينـه البـراءة مـن الحسـد، وأذنـه الفهـم، ولسانـه الصـدق، وحفظـه الفحص، وقلبه حسن النيّة، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيـارة العلماء، وهمّته السلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النجاة، وقائده العافية، ومركبـه الوفـاء، و سلاحه ليـن الكلمة، وسيفـه الرضا، وقوسه المـداراة، وجيشه محـاورة العلمـاء، و ماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنـوب، وزاده المعروف، ومأوه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبّة الأخيار**»[1].

ليس للعلم حدود

الإسـلام يؤكّد على الحاجة إلى المعرفة والعلم والتعلّم، وليس في مرحلة محدّدة

(١) الكافي، الكليني، ج١، ص٤٨.

من عمر الإنسان بل من المهد إلى اللحد. العلم ليس له حدود وليس له نهاية، وعلى الإنســان أن يبقى عاشقــاً للعلم ولا يتعاطى مع العلم فقــط كوسيلة للعيش. وهذا من خصوصيّات التوجيه الإسلاميّ.

قد نتعاطى مع العلم كمصدر للعيش وكمصدر للقوّة وكمصدر لمعالجة المشكلات الّتــي يعيشها الناس، ولكــن علينا أن ننظر إلى العلم والمعرفــة كقيمة إيمانيّة ذاتيّة أيضــاً ونرتبــط معه ارتباطــاً عشقيّاً وحبّيّــاً روحيّاً. هذا مــا أكّدتــه ورسّخته تعاليم الإسلام.

يجب أن لا يكون لطموحاتنا العلميّة ولا لأحلامنا العلميّة حدود، أيّاً تكن الصعوبات الاجتماعيّة والحياتيّة والمعيشيّة الّتي تُحيط بنا، وأيّاً تكن الظروف الّتي عشناها في السابــق أو الّتــي يمكن أن نواجهها فــي المستقبل. العلم والمعرفــة بالنسبة لنا، هما مسألتان ضروريّتان لازمتان سواء في البعد الإيمانيّ، لأنّه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[1]، أم فــي البعد الاجتماعيّ الحضاريّ لأنّ الحيــاة باتت متطلّباتها كبيرة وعظيمــة وخطيرة جــدّاً، ولأنّ الاستحقاقــات المقبلة أيضاً لا مــكان فيها للضعفاء. والضعفــاء ليســوا فقط مــن لا يملكون المــال ولا يملكون الســلاح. أوّل الضعفاء هم الجهلــة، هــم الّذين يعيشون عالة علــى حضارات الغير، هم الّذيــن لا يستطيعون أن يعالجوا مشاكلهم من خلال قدراتهــم واختصاصاتهم وخبراتهم الوطنيّة والقوميّة. لذلــك، إذا كنّا نؤمن بأنّنا في عالم ينتصر فيه القويّ، ويُحترم فيه القوي ويبقى فيه القــوي، فعندها يجب أن نبحث ونسعى للحصول على كلّ عناصر القوّة وفي مقدّمتها العلم في كلّ اختصاصاته الّتي تحتاج إليها أمّتنا.

في مواجهة التحدّيات

ولا بأســ أن، نتحــدّث عن مسؤوليّة إنسانيّة ودينيّــة وحضاريّة، عن مسؤوليّة تجاه

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

أمّة، عن مسؤوليّة في المعركة وليس عن مسؤوليّة في دائرة الحياة الشخصيّة. نؤكّد على المسؤوليّة العامّة لشعوب المنطقة وشعوب عالمنا العربي والإسلاميّ وخصوصاً على الطلّاب الجامعيّين. ليس هناك أيّ مشكلة في أنّ الفرد عندما يتخرّج من الجامعة يعود إلى حياته الشخصيّة ويفكّر ويخطّط كيف يؤمّن فرصة عمل وكيف يهيّئ منزلاً وعائلة، هذا أمر طبيعيّ وفطريّ، هذا أمر مشروع ومستحبّ أيضاً فلا يُشْعِرْه أحد بعقدة تجاه هذا الموضوع أبداً. «**الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[1]. هذا ديننا وهذا إسلامنا.

مشكلة الجامعيّين في العالم الإسلاميّ

على الإنسان أن يتحمّل هذه المسؤوليّة، وهذا لا يتنافى على الإطلاق مع المساهمة في التحدّيات والمسؤوليّات الجهاديّة والسياسيّة والثوريّة. الحقيقة أنّ المرض السائد الآن في الأمّة هو أنّ الكثير من طلّاب الجامعات وخرّيجي الجامعات في عالمنا العربيّ والإسلاميّ ينكفئون للاهتمام بحياتهم الشخصيّة، وبالتالي، لا تجدهم في المواجهات العامّة وفي المراحل الخطيرة. عِلماً أنّ الطاقة الحقيقيّة في الأمّة هي في أجيال الشباب، في شبابها بالدرجة الأولى، الشباب الّذين يملكون الصحّة، العنفوان، والطاقة، الشباب الّذين يملكون الأمل، وبالتالي هؤلاء الشباب يتحمّلون مسؤوليّة كبيرة في مواجهة التحدّيات، ونحن بحاجة إلى حضور كبير لأجيال الشباب ولطلّاب الجامعات في ساحات المواجهة والتحدّي.

ولا بدّ من التأكيد على أنّ هذا العلم وهذه المعرفة تبقى مفيدة للإنسانيّة إذا بقيت قائمة على قاعدة الإيمان بالله والتسليم له والاعتقاد بعظمته وقدرته وجبروته، وإلّا فكما قالت الآيات الّتي تتحدّث عن العلم: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] إلى أن تقول

(١) فقه الرضا، ابن بابويه، ص٢٠٨.

(٢) سورة العلق، الآية: ٥.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[١]. إنّ الّذي يتصوّر أنّه وصل إلى مقام من العلم والقوّة ومقام من الغنى لا يُدانيه أحد، مقام يستغني به عن الله عزّ وجلّ، عن خالق الخلق ورازقهم وعن منزّل العلم وحافظ هذا الوجود، يصل إلى مرحلة الطغيان والجبروت وادّعاء الألوهيّة الّتي في لحظة من اللحظات ينكشف عجزها.

خلاصة الكلام

إنّ العلم يعيش في حضن الإيمان، الإيمان الّذي يعني أنّ: «**الله حاضرٌ وحافظٌ ومراقبٌ لهذا الوجود**»، وعليه فينبغي للإنسان أن يبقي هذه الفكرة حيّة وقائمة في وجدانه كلّ لحظة. الإيمان إلى جانب هذا العلم يحفظ التواضع ويحفظ القيم الأخلاقيّة ويحفظ روح خدمة البشريّة ويمنع من العتوّ والغلوّ والعلوّ والطغيان والتجبّر والاستكبار والفساد والإفساد.

أمّا العلم بعيداً عن هذا الإيمان، فهو من أخطر الأسلحة الّتي هدّدت البشريّة وعرّضت البشريّة للمخاطر. العلم هنا يُصبح من أخطر الأسلحة الّتي تدمّر البشريّة وتسحق الناس في مشارق الأرض ومغاربها. ولذلك، فإنّ عظمة الإسلام تكمن في هذه النقطة أيضاً الّتي تدعو إلى العلم وتحثّ على العلم وترفع من درجة العلماء، ولكنّها تضع العلم بعد الإيمان، وفي حضن الإيمان وفي ظلّه وفي حاكميّته حتّى لا تتفلّت هذه القوى العلميّة الضخمة وتتحوّل إلى مأساة.

إنّ قدر هذه الأمّة أن تواجه الأخطار والتحدّيات وليس خيارها. قدر هذه الأمّة أن تقاوم، وقدر هذه الأمّة أن تنتصر، لأنّ الله سبحانه وتعالى وعدها بالنصر، فقط عندما تكون الأمّةَ الحيّةَ العازمةَ المتوكّلةَ الحاضرةَ.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦-٧.

(٢) سورة الحجّ، الآية: ٤٠.

للمطالعة

الإمامة

قال عبد العزيز بن مسلم: كنّا مع الإمام الرضا عليه السلام بمرو فاجتمعنا في المسجد الجامع بها، فأدار الناس بينهم أمر الإمامة، فذكروا كثرة الاختلاف فيها. فدخلت على سيدي ومولاي الرضا عليه السلام فأعلمته بما خاض الناس فيه. فتبسّم عليه السلام. ثمّ قال: «**يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن أديانهم، إنّ الله عزّ وجلّ لم يقبض نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حتّى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كلّ شيء وبيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كاملا، فقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]. وأنزل عليه في حجّة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2]. وأمر الإمامة من كمال الدين. ولم يمض صلى الله عليه وآله وسلم حتّى بيّن لأمّته معالم دينه وأوضح لهم سبلهم وتركهم على قصد الحقّ، وأقام لهم عليّا عليه السلام علما وإماما، وما ترك شيئاً ممّا تحتاج إليه الأمّة إلّا وقد بيّنه. فمن زعم أنّ الله لم يُكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فقد كفر.**

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمّة، فيجوز فيها اختيارهم؟! إنّ الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ﴾، قال الخليل سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة...»[3].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) تحف العقول، الحرّاني، ص٤٣٦ـ٤٣٧.

10

سنن التاريخ

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1]

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٣٧.

ضرورة دراسة سنن التاريخ

مـن الأمور الّتـي أكّد عليها الإسـلام السير في الأرض ومتابعـة أحوال الماضين وقراءة سنن التاريخ، لكن لا لمجرّد الاطّلاع والمعرفة، بل لفوائد عظيمة تتوقّف على هذه الدراسة.

وقـد ذكر القرآن الكريم الكثيرَ من أحـداث التاريخ والقصص المعبّرة ممّا جرى مـع آدم وإبليس وهبوطه عليه السلام إلى الأرض، وتحدّث عن العديـد من الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم وما جرى عليهم، وما جرى على المؤمنين وأتباع الأنبياء عليهم السلام عبر التاريخ، وصـولاً إلى النبـيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من بعثته صلى الله عليه وآله وسلم على مدى ٢٣ عامـاً إلى آخر الآيات الّتي نزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل وفاته.

فلمـاذا تحـدّث القـرآن الكريم عـن كلّ هذه القصـص والحـوادث؟ أليس لأجل استخلاص العبر والدروس، علماً أنّ القرآن ليـس كتاب تاريخ وإنّما هو كتاب هداية وإرشـاد، ولكن لأجـل أنّ أحداث التاريخ وما جرى مع الماضين مؤثّرة جدّا في عمليّة التربيـة الإنسانيّة والهداية البشريّة نحـو الكمال نجد ذلك حاضراً بشدّة في القرآن الكريم.

ويمكن القول إنّ الهدف من سرد هذه القصص والحوادث التاريخيّة هو الاستفادة

مـن تجـارب البشر عَبر التاريخ، حيـث إنّه لا يصحّ أن يبـدأ الإنسان من الصفر، بل مـن الواجب الاستفادة من الإيجابيّـات الّتي تقدّمت من الجماعات البشريّة السابقة عبـر التاريخ، وأيضاً يمكن ذكر هدف آخر وهـو استخلاص الدروس والعبر وبالتالي الاهتداء إلى سواء السبيل.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١].

الأمـر الأول: نحن الموجـودون الآن لا نختلف عن من تقدّمنا من الناس إلى بدء الخليقـة، أودع الله فينـا قوى ماديّة ومعنويـة وطموحات وتطلّعات وآمـال و.. والّذي يختلـف هو المفـردات، الأساليـب، الأدوات، فالمضمـون الإنسانيّ هـو واحد ولكن الأساليب تختلف.

الأمر الثاني: الحياة البشريّة والمجتمعات محكومة لقوانين ثابتة وسنن لا تتغيّر والعقل البشريّ بدأ باكتشافها، ونتيجة اطّلاع الإنسان على هذه القوانين يجد فرصة أكبر بالسيطرة على الكون، ولولا السنن والقوانين والمعادلات العلميّة لكان كلّ شيء فـي الحياة فوضـى، ولا يمكن بناء شيء على شـيء، ولما تطـوّرت البشريّة، وكذلك بالنسبـة للتاريخ فإنّ فيه سنناً ثابتة يمكـن البناء عليها، وأخذ العبر منها، وما علينا إلّا دراسة التاريخ لاستخلاص هذه السنن وأخذ العبر منها.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[٢]. فلـو لـم تكن هذه ثابتـة لما كان هناك معنى لأن يقـول لنا الله سيروا في الأرض وتأمّلوا في عواقب المكذّبين والّذين من قبلنا، لكنّ الأمر بالتأمّل والتدبّر والنظر فرع وجود سنن قائمة وثابتة يمكن الاستفادة والاتّعاظ وأخذ العبر منها.

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ١٣٧.

يقول تعالى:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ﴾(١).

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾(٢).

سنّة النصر

إنّ من السنن الإلهيّة التاريخيّة الّتي تسالم عليها في القرآن الكريم هي سنّة النصر الإلهيّ، فالأمّة المؤمنة الّتي تستطيع أن تصبر وتطيع قيادتها ستنتصر لا محالة. وفي المقابل الجماعة الّتي تتخاذل وتتنازع فيما بينها ولا تطيع قادتها، ولا تتوحّد على رأي واحد وعمل واحد وتتفرّق أهواؤها وآراؤها، وتتعدد قيادتها، تكون نتيجتها الفشل والهزيمة بشكل طبيعيّ. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٣).

فوحدة كلمة الأمّة واجتماعها على رأي قيادة واحدة، في أيّ بلد كانت، من أسباب الانتصار.

وفي المقابل إنّ اختلاف الأمّة وتنافرها وفرقتها، مهما كان دينها ومذهبها وانتماؤها وفي أيّ بلد كانت، كلّها أسباب الفشل والهزيمة. من هنا كان مثال معركة أحد في التاريخ الإسلاميّ، حيث إنّ المسلمين كانوا منتصرين في بداية المعركة، وما ذلك إلّا لاجتماعهم على كلمة قيادة واحدة، وإطاعتهم لنبيّهم والتزامهم لتكليفهم، ولكن بعد أن بدت ملامح الانتصار، وبدأ الجنود بأخذ الغنائم، تخاذل خمسون شخصاً عن أداء تكليفهم في المكوث والبقاء على الجبل الّذي أكّد رسول الله ﷺ بالبقاء عليه مهما كانت الظروف، وعند عدم إطاعتهم للنبيّ ﷺ ونزولهم من مواقعهم استغلّ جيش قريش هذه الثغرة في معسكر المسلمين، والتفّوا عليهم وقلبوا المعركة من

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

نصر إلى هزيمة، وكسرت في هذه المعركة رباعيّة الرسول (مقدّمة أسنانه)، وأشاع الأعـداء مقتل النبيّ ﷺ وصدّق بعض المسلمين هذه الكذبة الّتي هي إحدى أساليب الحـرب النفسيّة، ولـولا صمود بعض الخلّص حول النبيّ ﷺ لمـا استعاد المسلمون آنذاك زمام المبادرة.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

ومـن هذه الآية يُفهم بوضوح أنّ طلـب الدنيا هي سبب التخلّف عن إرادة الرسول وإطاعته.

سنّة التغيير

يقـول تعالى في محكم كتابه: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (٢).

وهــذه سنّة إلهيّة تاريخيّــة واضحة، تقول إنّه لا يمكن للأمّــة أن تجلس في بيوتها وتشكـو للّه مـا يحصل لها من ظلـم وتعدّ واغتصـاب للحقـوق وإذلال للكرامات و.. ويستجيـب اللّه لها، أبداً، إنّ هنـاك سنّة وقانونـا ثابتاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ فـلا بـدّ للأمّـة أن تغيّـر حالة الخنـوع إلى حالة النهوض والثورة والتضحيــة والعمل والجدّ والمواجهة، حتّـى يستجيب اللّه سبحانه لها ويدحض عنها الظلم والعنوان، ويبدّل الذلّ عزّاً وكرامة، والهزيمة فوزاً وانتصاراً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة الرعد الآية: ١١.

خلاصة ما تقدّم: إنّ هناك دعوة قرآنيّة لفهم سنن التاريخ للاستفادة منها وأخذ العبر منها، ولكي نستفيد من عناصر القوّة في هذه السنن تماماً كما نستفيد من السنن الطبيعيّة. ومن هنا ننتقل للحديث عن مفصل تاريخيّ مهمّ جدّاً في حياة المسلمين، وهو كربلاء، ومرادنا بالمفصل التاريخيّ هو أنّ بعض الحوادث التاريخيّة كان لها دور كبير في التأريخ، وفي مجريات الأحداث، ، فهجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة كانت مفصلاً، ووفاته صلى الله عليه وآله وسلم كانت مفصلاً، كذلك كربلاء، وهي أعظم تجربة تاريخيّة في حياة الأمّة إن لم نقل في حياة البشريّة، تعدّ مفصلاً تاريخيّاً حسّاساً لا بدّ من الوقوف عنده ودراسته ضمن دائرة السنن الإلهيّة.

فمن وصيّة الإمام عليّ للإمام الحسن عليهما السلام: «**أحيِ قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين، ونوّره بالحكمة، وذلّله بذكر الموت، وقرّره بالفناء، وبصّره فجائع الدنيا، وحذّره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيّام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأوّلين، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوا وعمّا انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا، فإنّك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبّة، وحلّوا ديار الغربة، وكأنّك عن قليل قد صرت كأحدهم. فاصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك. ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلّف**»(١).

«**أي بُنيّ، إنّي وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتّى عدت كأحدهم. بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدَره، ونفعَه من ضرره، فاستخلصت لك من كلّ أمرٍ نخيله (المختار المصفّى)، وتوخّيت (تخيّرت) لك جميله، وصرفت عنك مجهوله...**»(٢).

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩.

(٢) م.ن، ج ٣، ص ٤١.

الثبات في طريق الحقّ

الثبـات في جبهـة الحقّ مع نبيّ الحقّ مع إمام الحقّ، سـواء الحقّ في المعتقد الدينـيّ أم السياسيّ أم ... وتحدّثنا الكتب عـن القيادات والنخب والخواصّ من وعّـاظ ومفكّرين وقادة عسكريّين، وعن عوامّ الناس أيضاً، أنّه ونتيجة التحدّيات كان هنـاك من يتزلزل، ومنهم مـن يتخلّف، ومنهم من يكفـر بالحقّ، ومنهم من يصبـح مناصراً للباطل ويحمـل سيفه على الحقّ، فإنّ المحن تفرز الناس بحسب نتائجهـا، وهـذا معنى قـول الإمام علـيّ عليه السلام: «**والّـذي بعثـه بالحـقّ لتبلبلنّ بلبلـة، ولتغربلـنّ غربلـة، ولتساطـنّ سوط القـدر، حتّى يعـود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقـنّ سابقون كانـوا قصّروا، وليقصّـرنّ سبّاقون كانوا سبقـوا**»[1].

تقسيم الناس بعد المحنة

إنّ الناس الّذين هم من أهل الحقّ ومع الحقّ وفي جماعة الحقّ عندما تحلّ المحنة بهم تغربلهم إلى فئات:

١ ـ فهناك أشخاص ينجحون في المحنة ويثبتون مع الحقّ ولا يتزلزلون.

٢ ـ وهناك أشخاص يجلسون على التلّ، يعرفون الحقّ ولا ينصرونه.

٣ ـ وهناك من يتزلزل إيمانه ويتخلّى عن الحقّ وهو خائف.

٤ ـ وهناك من يرتدّ عن الحقّ من الأساس، ويعتقد أنّه كان مخطئاً.

٥ ـ وهناك من يرتدّ عن الحقّ ويحمل السيف في وجه الحقّ.

لمـاذا ثبـت أشخاص وارتـدّ آخرون؟ ألسنـا جماعة وبشراً مثلهـم؟ وقد تحلّ بنا المحن مثلهم بين الفينة والأخرى؟ كيف نكون محصّنين في المحنة، ولأجل أن نأخذ

---

(١) م.ن، ج١، ص٤٧.

العبـرة؟ وكيـف يكون الإنسان ثابتـاً في طريق الحقّ، وكيف يبقـى محصّنا؟ وما هي العوامل المساعدة على الثبات في طريق الحقّ وفي جبهة الحقّ؟

هذا ما سنقدّم الأجوبة عليه في الدرس التالي.

للمطالعة

الحوادث المرّة ميدان تربية[1]

إنّ لمعركة «**أحد**» وما لحق بالمسلمين فيها من هزيمة نتائج وآثارا، ومن نتائجها وآثارها الطبيعيّة أنّها كشفت عن نقاط الضعف في الجماعة والثغرات الموجودة في كيانهـا، وهـي وسيلة فعّالة ومفيدة لغسـل تلك العيوب والتخلّص مـن تلك النواقص والثغـرات، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2] أي أنّ الله أراد – في هـذه الواقعة – أن يتخلّص المؤمنون من العيوب، ويريهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعـف. إذ يجب لتحقيق الانتصارات في المستقبل أن يمتحنوا في بوتقة الاختبار، ويزنـوا فيها أنفسهم كما قـال الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**في تقلب الأحـوال علم جواهر الرجال**».

ولهذا قد يكون لبعض الهزائم والنكسات من الأثر في صياغة المجتمعات الإنسانيّة وتربيتها ما يفوق أثر الانتصارات الظاهريّة. والجدير بالذكر أنّ مؤلف تفسير المنار نقل عن أستاذه مفتي مصر الأكبر الشيخ محمّد عبده أنّه قال: «**رأيت النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليلة الخميس الماضية (غـرّة ذي القعدة سنة ١٣٢٠) في الرؤيـا منصرفاً مع أصحابه من أحد وهو يقول: «لو خيّرت بين النصر والهزيمة لاخترت الهزيمة»** أي لما في الهزيمة من التأديب الإلهيّ للمؤمنين وتعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط ولا يغترّوا بشيء

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج ٢، ص ٧١٢-٧١٤.

(٢) التمحيص والمحص أصله: تخليص الشيء ممّا فيه من عيب.

يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر[١]. وأمّا نتيجة هذه التربية والصياغة الّتي يتلقّاها المؤمنون في خضمّ المحن والمصائب وأتون الحوادث المرّة فهو حصول القدرة الكافية لدحر الشرك والكفر دحراً ساحقاً وكاملاً. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[٢]. فإنّ المؤمنين بعد أن تخلّصوا – في دوّامة الحوادث – من الشوائب يحصلون على القدرة الكافية للقضاء التدريجي على الشرك والكفر، وتطهير مجتمعهم من هذه الأقذار والشوائب، وهذا يعني أنّه لابدّ أوّلاً من تطهير النفس ثمّ تطهير الغير. أي التطهّر ثمّ التطهير. وفي الحقيقة كما أنّ القمر – مع ما هو عليه من النور والبهاء الخاصّين به – يفقد نوره شيئاً فشيئاً أمام وهج الشمس وبياض النهار حتّى يغيب في ظلمة المحاق فلا يعود يرى إلّا عندما تنسحب الشمس من الأفق، كذلك يأفل نجم الشرك وأهله وتتضاءل قوّة الكفر وأشياعه كلّما ازداد صفاء المسلمين المؤمنين، وخلصوا من رواسب الضعف والاعوجاج والانحراف. فهناك علاقة متقابلة بين تمحيص المؤمنين وارتقائهم في مدارج الخلوص والطهر، ومراتب الصفاء والتقوى ، وبين انزياح الكفر والشرك واندثار معالمهما وآثارهما عن ساحة الحياة الاجتماعيّة. هذه هي الحقيقة الكبرى والخالدة الّتي يلخصها القرآن في هاتين الجملتين اللتين تشكل الأولى منها المقدّمة والثانية النتيجة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

(١) المنار: ج ٤ ص ٤٦ .

(٢) المحق: النقصان ومنه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال وامتحق وقلّ ضياؤه.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤١–١٤٢.

11

عوامل الثبات والتزلزل

يقول الله سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

تمهيد

إنّ دراسة عوامل التزلزل عن الحقّ تعرّفنا على عوامل الثبات، وأسباب التزلزل تشير إلى أسبابا الثبات، تماماً كالتعرّف على أسباب المرض حتّى يعرف الإنسان أسباب الصحّة والسلامة.

أساليب العدوّ في المحنة

يبدأ الصراع بين الحقّ والباطل، فيتّهم أهلُ الباطل أنصارَ الحقّ بأنّهم مرفوضون من قبل الناس، ومن قبل المجتمع، ثمّ تتطوّر الأساليب فيتّهمونهم بالكذب والسحر والشعوذة والجنون، كما حصل مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وصولا إلى الشتائم والأذى الشخصيّ والمقاطعة والتعذيب والحصار، وانتهاء بالقتل والتعذيب والإبادة. ومن هنا ندخل للحديث عن عوامل الثبات والتزلزل:

العوامل المؤثّرة في التثبيت

في آخر سورة هود، يقول تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

لقـد تعرّضت سورة هود في القرآن الكريم إلـى عدد من قصص الأنبياء عليهم السلام، وكلّ هـذه القصص المذكورة في هـذه السورة على تنوّعها إنّما هي لأجل تثبيت فؤاد النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقلوب المؤمنين مع النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فهي موعظة وذكرى للمؤمنين، وهي حقّ ونثبّـت بها فؤادك، لأنّ القلـب إذا كان ثابتاً وقويّاً شجاعـاً وصلباً عندها تثبت سائر الأعضاء.

ما هي عوامل التزلزل والثبات من القرآن والسنّة والتاريخ؟

١ ـ الخوف من الموت:

فـي البداية يصمـد صاحب الحقّ قليلاً، ولكـن عندما تصل مسألـة الثبات على الحـقّ إلى روحه وعائلته وأحبّائه، وأنّه قد يتعرّض للقتل عندئذٍ قد يتزلزل، وشواهد ذلـك مـن التاريخ كثيرة جدّاً، لكن نذكر شاهداً واحداً من كربلاء فقط، ففي الكوفة الّذيـن بايعوا الإمام الحسيـن عليه السلام وبايعوا مسلم بن عقيل سفيـر الحسين إليهم، عندمـا هدّدهم عبيد الله بن زياد بالقتل (مـع استخدامه لقليل من الحرب النفسيّة حيث بثّ شائعة أنّ جيش يزيد من أهل الشام في الطريق إليهم) تزلزلوا وسقطوا في هذه المحنة وتخلّوا عن مسلم بن عقيل، وخذلوا الإمام الحسين عليه السلام.

وعلاج هذا السبب يتمّ من خلال عدّة أمور، لو اعتقدت النفس بواحد منها لارتفع الخوف من الموت، ولم تعد تتزلزل عن الحقّ في المحنة عندما تواجه الموت، وهذه الأمور هي:

ألـف- أن يلقّن الإنسـان نفسه حقيقة أنّ جميع النـاس غير مخلّدين وكلّهم ميّتون، عندها لم يعد يبالي بالموت، وإنّما تختلف أسباب الموت:

مـن لـم يمـت بالسيـف مـات بغيره تعـدّدت الأسبـاب والمـوت واحـد

ب- توهّم أنّ في الهروب نجاة:

تتوهّـم أنفسنا أنّ التأخّر والهروب مـن الحرب والمعركة والابتعاد عن خطّ الحقّ

سوف يبعدنا عن الموت، والصحيح أنّ الموت له أجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[١].

﴿... يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[٢].

فتوهّم أنّ الهروب من الموت ـ عند التحدّي والمحنة ـ هو حفظ للنفس وإطالة للعمر! توهّم خاطئ وغير صحيح، والأسوأ من ذلك أنّ هذا النوع من الناس يموتون بوقت سريع، فكثير من قيادات وكوادر بل ومقاتلي جيش يزيد لم يلبثوا بعد الإمام الحسين عليه السلام إلّا قليلاً، فهل تستحقّ هذه السنوات القليلة للتزلزل والابتعاد عن الحقّ.

٢ ـ الخوف على الأموال والرزق:

والصحيح في أنّ الجهاد هو الّذي يجلب الرزق، ومن أراد أن يتأكّد فلينظر ما جرى على أهل المدينة في واقعة الحرَّة، و ما جرى على الأمّة بعد تخلّي الأمّة عن فلسطين. ثمّ لينظر في عاقبة الجهاد في لبنان حيث أعاد إلينا كلّ شيء أهلنا وقرانا وأموالنا وحافظ على أعراضنا..

٣ ـ ركون الناس إلى الدنيا:

إذ يعتقدون أنّها باقية دائمة، ويغفلون عن كونها زائلة فانية، لم تدم لغيرهم فكيف تدوم لهم؟!

انظر إلى الأمم السالفة إلى الفراعنة والعمالقة، إلى الفرس والروم، إلى حضارات كانت وولّت، إلى من شارك في قتل سيّد الشهداء عليه السلام، من بقي منهم؟

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

وأيـن هي دورهم وقصورهم؟ أموالهم وكنوزهم؟ عاشـوا قليلاً، ورحلوا سريعاً، فلم تبـقَ إلا آثارهـم.. فهل تستحقّ هذه الدنيا أن نخسـر لأجلها الآخرة فضلاً عن الدنيا نفسها؟!

من النافع هنا أن نتذكّر كلام الإمام الحسين عليه السلام لجيش ابن سعد (لعنه اللّه) حيـث فقال: «**الحمـد لله الّذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حـالاً بعـد حـال، فالمغرور من غرّتـه والشقيّ من فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا، فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيّب طمع من طمع فيها**»[(١)].

عمـر بن سعد (لع) رضـي بقتل الإمـام الحسين عليه السلام طمعاً بشـيء من حطام الدنيا (ملك الريّ وبعضاً من جرجان)، ولكنّه لم يبق بعد الحسين عليه السلام إلّا سنوات قليلة وقتل على يد المختار الثقفي. فخسر الدنيا والآخرة.

فالسبب الرئيس الّذي يجعل الإنسان ثابتاً على الحقّ هو عدم تعلّقه بالدنيا، وليس الزهد هو لباس الخشن وإنّما هو عدم التعلّق بالدنيا:

- عندما أخيّر بين الحقّ ونفسي أقدّم الحقّ،
- عندما أخيّر بين الحقّ وولدي أقدّم الحقّ،
- عندمـا أخيّر بين الحـقّ ومالي أقدّم الحقّ وأنصر الحـقّ وأقدّم كلّ شيء من أجل نصرة الحقّ.

٤ ـ العلم والمعرفة:

بمـا أعـدّه اللّه للثّابتيـن والمضحّيـن والمجاهديـن فيقدّم اللّه على هـواه لجنّة عرضها السماوات والأرض وحياة خالدة ورضوان ودار « **فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعـت ولا خطـر على قلب بشـر**»... وأيّ شخص عاقل يعـرف ويدرك أنّ وراء هذه الحياة الدنيا حياة بتلك العظمة ثمّ يتخلّى عنها؟!!

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٤٥، ص٦.

٥ ـ اللجوء إلى الله سبحانه:

فإنّـه ركن قويّ وحرز حريز عند التزلزل وعندمـا تبدأ النفس والشيطان والناس بالوسوسة وتثبيط العزائم،.. فنلجأ إلى الله سبحانه، وعندما نطلب من الله أن يثبّتنا ويعيننا، فإنّ الله يستجيب لنا، وعلى طوال التاريخ كان يفعل المؤمنون ذلك: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[١].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[٢].

يعني هذا ديدن المؤمنين مع الأنبياء عليهم السلام.

٦ ـ التأسّي:

بالأنبياء وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما تحمّله وصبر عليه من مكائد الدهر والأذى والآلام، وبأهل البيت الّذين تهون عند مصائبهم كلّ مصيبة وبصحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المرحلة المكّيّة عندما عذّبوا وقتّلوا وشرّدوا:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ...﴾[٤].

أنست رزيّتكم رزايانا الّتي سلفت وهوّنت الرزايا الآتية

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

للمطالعة

بلاء المؤمنين

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: **«وقد كان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون بالمناشير وتضيق عليهم الأرض برحبها فما يردّهم عمّا هم عليه شيء ممّا هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، فاسألوا ربّكم درجاتهم واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم»**(١).

وعن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: **«بعث الله نبيّا حبشيّا إلى قومه فقاتلهم، فقتل أصحابه وأسروا وخدّوا لهم أخدودا من نار ثمّ نادوا: من كان من أهل ملّتنا فليعتزل، ومن كان على دين هذا النبيّ فليقتحم النار، فجعلوا يقتحمون، وأقبلت امرأة معها صبيّ لها فهابت النار، فقال لها: اقتحمي، قال: فاقتحمت النار، وهم أصحاب الأخدود»**(٢).

---

(١) الكافي، ج ٨، ص ٢٤٨.

(٢) البحار، ج ١٤، ص ٤٤١.

حسن العاقبة

يقول اللّه سبحانه تعالى في محكم كتابه:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١]

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

تمهيد

مــن المسائل المهمّة جدّاً فــي حياتنا وسلوكنا وعلاقتنا مع الآخرين مسألةُ تقييم الأشخاص وكيفيّـة التعامـل معهم، هل على أساس الماضي فقـط؟ أم على أساس الحاضر؟ وما هي الأسس الّتي نبني عليها موقفنا العاطفيّ والعمليّ تجاههم؟

فـإذا أردنـا تقييم إنسانٍ ما، فإنّ من الجَور أن نبني موقفنا على ماضيه فقط، بل يجب الأخذ بعين الاعتبار حاضر هذا الإنسان. أمّا الّذي يختلف ماضيه عن حاضره؛ فـإنّ الإسلام يقودنا للتعاطـي معه على أساس حاضره، فالمهـمّ هو حاضر الإنسان الآن وواقعه الحاليّ.

وبناءً على ذلك، فإنّ المعيار الّذي يتعلّق بحسابات وموازين الآخرة في تقييم الأشخاص هو حالهم عند رحيلهم عن هذه الدنيا؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّـة سبعين سنة فيحيـف (يظلم) في وصيّته فيختم له بعمل أهل النار، وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار سبعين سنة فيعدل في وصيّته فيختم له بعمل أهل الجنّة**»[1].

فالروايـة تشير إلى أنّ العمل الّذي يختم به الإنسان حياته مؤشّرٌ على حاله ووزنه في الآخرة.

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ١٠٠، ص ٢٠٠.

حسن العاقبة: دعاءُ النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام

إنّ الّـذي يجـب أن يشغل بال الإنسـان حقيقةً ليس الحاضر فقـط بل حاله ومآله فـي المستقبل؛ مستقبل دينه وسلوكه وأخلاقـه والتزامه، التزامه الفكريّ والسياسيّ والعملـيّ. فهذا الّذي ينبغي أن يشغل حيّـزاً كبيراً من تفكيره؛ ولهذا نجد في الأدعية عـن النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام الطلب من الله أن يختم حياتهم بالخير وأن يرزقهم حسن العاقبة وأن يجعل عواقب أمورهم خيراً.

وهنـا، علينا أن نفكّر ماذا ينبغي أن نفعل لتكـون خاتمتنا طيّبة فتحسن عاقبتنا؟ وما هي الأمور الّتي علينا أن نحذر منها ونبتعد عنها حتّى لا تسوء عاقبتنا؟

عوامل مؤثّرة في العاقبة

إنّ العوامل والأمور المؤثّرة في هذا المقام كثيرة، ولكنّنا سنتعرّض للمهمّ والمؤثّر منها:

١ـ الأمن من مكر الله سبحانه وتعالى:

ويكـون ذلك من خلال اطمئنان الإنسان إلى عمله الماضي واعتبار نفسه متديّناً، مجاهداً ومضحّياً... وقد يصل به ذلك إلى الإعجاب بعمله والاغترار به.

وهـذا الأمن من مكر الله سبحانه يؤدّي إلى نتائـج سلبيّة على المستوى الروحيّ. ومـع الوقت يجـد الإنسان نفسه في مكان آخـر؛ مع العصاة والظالميـن. يقول أمير المؤمنيـن عليه السلام فـي نهج البلاغة: **«يـا ابـن آدم إذا رأيت ربّك سبحانـه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره»**[1].

فانتبـه أيّها الإنسان من أن تعتَبر نفسك أهلاً لهذه النّعم. لقد كان رسول الله ﷺ يحذّر من هذا الأمر ويوصي المؤمن بأن يكون خائفاً وقلقاً من سوء العاقبة، فعنه ﷺ:

(١) نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)، الشريف الرضي، ج ٤، ص٧.

«**لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة، لا يتيقّن الوصول إلى رضوان الله حتّى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له...**»[١]. فقلق المؤمن وخوفه ينتهيان عند نزع الروح. فما دام التكليف فعليّاً عليه فهو في حالة خوفٍ وقلقٍ من أن يختم حياته بعملٍ سيّئ فتسوء عاقبته لا سمح الله.

٢ـ اليأس من رحمة الله:

عندما يتذكّر الإنسان ماضيه السيّئ ومعاصيه وآثامه وخطاياه الّتي قد ارتكبها قد ييأس من رحمة الله، ويعتبر أنّ باب التوبة قد أُغلق بوجهه، وهذا يجعله يغرق أكثر في المعصية، وبالتالي تسوء خاتمته وعاقبته.

إلا أنّ الجواب الإلهيّ على مثل هذا اليأس قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[٢]، فالآية تقرّر أنّ باب التوبة والإنابة والرجوع إلى الله مفتوح ولا يجوز للإنسان أن ييأس من رَوح الله مهما كانت ذنوبه ومعاصيه كثيرة. إلّا أنّ هناك أمراً لا بُدّ من الالتفات إليه، وهو أنّ هذا الاستغفار لا علاقة له بما تعلّق في ذمّة الإنسان من حقوق الناس، كالاعتداء عليهم أو على أموالهم وممتلكاتهم. فلا بُدّ من إرجاع الحقوق إلى أصحابها والاستحلال منهم، فإنّ ذلك شرط لقبول التوبة.

من هذين العاملين نفهم معنى أن يعيش الإنسان المؤمن بين الخوف والرجاء؛ فلا الأمن من مكر الله جائز ولا اليأس من رحمته جائز أيضاً.

٣ـ الغفلة عن الله سبحانه وتعالى:

فالإنسان المؤمن بالله سبحانه يمكن أن يغفل عنه وينساه، هذه الغفلة إذا طالت فإنّها تؤدّي إلى قسوة القلب وإلى البعد عن الله، بل الله سبحانه قد ينسانا ﴿نَسُوا۟

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٧٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

﴿ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[1] ويكلنا إلى أنفسنا ويرفع عنّا عنايته وهدايته ولطفه، وبالتالي ستكون عاقبتنا وخاتمتنا سيّئة. وكذلك عندما نأتي لموضوع الغفلة عن الموت وعمّا بعد الموت فإنّ ذلك يؤدّي إلى قسوة القلب والتعلّق بالدنيا والغرق في الشهوات والأطماع والأهواء فتسوء عندئذٍ العاقبة والخاتمة.

فالّذي يغفل عن الله ولا ينتبه إلى انغماسه في المعاصي لا يجد ما يردعه عن تلك الأفعال والأقوال، ولكن، بالمقابل، الّذي يبقى يقظاً من خلال حضور الله سبحانه وتعالى في وجدانه لا يغفل ولا ينسى، بل يبقى ذاكراً، وهنا الذكر ليس المراد منه الذكر اللسانيّ، بل الذكر الحقيقيّ الّذي نرى من خلاله حضور الباري عزّ وجلّ في كلّ المواقف، فلا نعصيه خجلاً وحياءً منه، ولا نطيعه تقرّباً وتزلّفاً للناس، بل شوقاً وحبّاً له عزّ وجلّ.

هذا التذكُّر لله سبحانه والانتباه إلى حضوره وإلى مراقبته وإلى أنّه سميعٌ وبصير ومحيط، يمنع الإنسان من المعصية ويشجّعه على الطاعة. وفي حديث للإمام الباقر عليه السلام قال: «**ثلاثٌ من أشدّ ما عمل العباد: إنصاف المرء من نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كلّ حال؛ وهو أن يذكر الله عزّ وجلّ عند المعصية يهمُّ بها فيحُول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عزّ وجلّ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[2]»[3].

فلنتأمّل، في هذه الأمور الثلاثة الّتي ذكرتها الرواية فإنّها من أشدّ ما فرض الله:

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٣) الخصال، الشيخ الصدوق، ص ١٣١.

الأمر الأوّل: إنصاف الناس من نفسك

وفي الواقع تحقيق هذا الأمر بحاجة إلى مجاهدة وإلى مرتبة عالية من الإيمان، فأن تحكم بالعدل بين المتخاصمين أمر جيّد ومطلوب، ولكن أن تحكم بالعدل فيما لو كنت أنت نفسك أو أحد أقربائك طرفاً في القضيّة، فهذا بحاجة إلى إخلاص وإلى مرتبة عالية من التقوى والورع والتوفيق الإلهيّ.

الأمر الثاني: مواساتك لأخيك

أن تواسي أخاك في مالك إذا احتاج إليه أو وقع في مشكلة فتعينه وتشدّ أزره. وهنا كلمة الأخ مطلقة يراد منها الأخ في الإيمان وهي أعمّ من الأخ الرحميّ، وإن كان الأخ المؤمن الرحميّ صاحب حاجة فهو أولى من غيره.

الأمر الثالث: ذكر الله على كلّ حال

هذا الذكر الّذي يرغّبك في طاعة اللّه ويقوّي عزيمتك ويدفعك ويحثُّك للاقتراب أكثر في ساحة العبوديّة للّه سبحانه وتعالى، كما أنّه يردعك ويمنعك من ارتكاب المعصية.

وفي الواقع، إنّ التجربة تقودنا إلى أن لا نركن إلى أيّة ضمانات وأن لا ندع طول الأمل يدخل ساحتنا، فلا الشباب ولا الصحّة ولا المال يمكن أن تشكّل ضمانة للإنسان لتجنّب سوء العاقبة وسوء الخاتمة.

وفي هذا السياق نرى أنّ الكثير من التشريعات الإسلاميّة جاءت لتحثَّ الإنسان على التذكّر والتفكّر بالعاقبة والخاتمة، ومن ذلك استحباب إعلام المؤمنين عند موت الإنسان، ومواساة أهله، واستحباب زيارة القبور.. فكلّ هذه الأمور تحيي قلب الإنسان بالموعظة وتجعله ذاكراً، لا يغفل ولا ينسى ربّه.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إيّاك والغفلة، ففيها تكون قساوة القلب**»[١].

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٤.

٤ـ التقوى والتزكية:

يقول تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1]، ويقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

نستفيد من هاتين الآيتين أنّ العاقبة الحسنة هي نتاج التقوى، والتقوى تعني أن يتّقي الإنسان كلّ ما يُفضي إلى الإثم ويوقعه فيه؛ ولذلك ورد عن الإمام عليّ عليه السلام: «**التقوى اجتناب**»[3]، وبمعنى آخر التقوى تعني المراقبة، أي أن يعيش الإنسان حالةً يراقب فيها نفسه وأقواله وأعماله فيردعها عن ارتكاب الذنوب وفعل المعاصي ويشجّعها على فِعل الطّاعات والواجبات.

عن رسول الله ﷺ في وصيّته لأبي ذر: «**عليك بتقوى الله فإنّها رأس الأمر كلّه**»[4]. فالتقوى هي الأساس والأصل للأمور الثلاثة الّتي تقدّم ذكرها، ومن حصل عليها فقد تمسّك برأس الأمر كلّه.

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «**أيسرُّكَ أن تكون من حزب الله الغالبين؟ اتّق الله سبحانه وأحسن في كلّ أمورك، فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[5]**»[6]. والحديث الأخير في مسألة التقوى هو ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**التقوى حصنٌ حصين...**»[7]. فالمتّقي محصَّن، فلا شياطين الجنّ والإنس ولا الفضائيّات ولا الإنترنت ولا زخارف الدنيا وبهارجها ولا كلّ ما يراه ويسمعه يمكن أن ينالوا من عزمه وإرادته والتزامه واندفاعه وتقواه.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) عيون الحكم والمواعظ، الليثي الواسطي، ص ٦٠.
(٤) بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٢٨٩.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٨.
(٦) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ١، ص ٦٠٠.
(٧) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٦٢.

التزكية ضمانة التقوى

وأمّا التزكية الّتي من خلالها يصل الإنسان إلى مرحلة يسيطر فيها على قواه النفسيّة والجسديّة فتصبح نفسه مطيعةً ومنسجمةً ومقتنعةً وتابعةً لما يريده الله سبحانه، فلا يحتاج بعدها المرء لمعركة مع نفسه الأمّارة حتّى يتخلّى عن الذنب ويتركه، بل يرى أنّه من السهل اجتناب المعاصي والذنوب. هذه التزكية بحاجة إلى تربية وجهد وعناء وصبر وعزيمة وإصرار وتوكّل وإرادة، وبالتالي يصبح عندنا ضمانة للتقوى ولحسن العاقبة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[١]، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٢].

وفي الختام نذكر أنّ هناك أعمالاً خاصّة تساعد على حسن العاقبة، منها قضاء حوائج الإخوان والإحسان إليهم، فعن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنّ خواتيم أعمالكم قضاءُ حوائج إخوانكم والإحسان إليهم ما قدرتم، وإلّا لم يقبل منكم عمل، حنّوا على إخوانكم وارحموهم تلحقوا بنا**»[٣].

نسأل الله سبحانه وتعالى حُسن العاقبة، وأن يختم لنا بخير، وأن يُعيننا على أنفسنا، وعلى ابتلاءاتنا، وعلى اختباراتنا، وعلى امتحاناتنا؛ لنكون إن شاء الله من أهله ومن أهل جنّته ورضوانه ومن أهل جواره، وهذا ما يحتاج إلى الدعاء والنيّة والعزم والإرادة والجهد.

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٤.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٧٩.

للمطالعة

العالم المنحرف «بلعم بن باعوراء»[(١)]

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٢)]

تحكي هذه الكلمات الإلهيّة قصّة رجل كان في البداية في صفّ المؤمنين، وحاملاً للعلوم الإلهيّة والآيات، إلا أنّه انحرف عن هذا النهج، فوسوس له الشيطان، فكانت عاقبة أمره أن انجرّ إلى الضلال والشقاء!

نعم، ليس هناك ذكر لاسم أحد بعينه، بل تحدثت الآيتان عن عالم كان يسير في طريق الحقّ ابتداء وبشكل لا يفكّر معه أحد بأنّه سينحرف يوماً، إلّا أنّه نتيجة لاتباعه لهوى النفس وبهارج الدنيا انتهى إلى السقوط في جماعة الضالّين واتّباع الشياطين.

غير أنّنا نستفيد من الروايات وأحاديث المفسّرين أنّ هذا الشخص يسمّى (بعلم بن باعوراء) الّذي عاصر النبيّ موسى عليه السلام وكان من مشاهير علماء بني إسرائيل، حتّى أنّ موسى عليه السلام كان يعوّل عليه على أنّه داعية مقتدر، وبلغ أمره أنّ دعاءه كان مستجاباً لدى الباري جلّ وعلا، لكنّه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وفقد مناصبه المعنويّة تلك حتّى صار بعدئذٍ في جبهة أعداء موسى عليه السلام.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**الأصل من ذلك بلعم، ثمّ ضربه الله مثلا لكلّ مؤثرٍ هواه على هوى الله من أهل القبلة**».

---

(١) تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ج٥، ص٢٩٧، بتصرّف.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥- ١٧٦.

ومن هذا يتبيّن أنّ الخطر الأكيد الّذي يهدّد المجتمعات الإنسانيّة هو خطر المثقّفين والعلماء الّذين يسخّرون معارفهم للفراعنة والجبّارين؛ لأجل أهوائهم وميولهم الدنيويّة (والإخلاد إلى الأرض) ويضعون كلّ طاقاتهم الفكريّة في سبيل الطاغوت الّذي يعمل ما في وسعه لاستغلال مثل هذه الشخصيّات لإغفال وإضلال عامّة الناس.

ولا يختص الأمر بزمن النبيّ موسى عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام، بل حتّى بعد عصر النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء وأبي عامر الراهب وأميّة بن الصلت، يضعون علومهم ومعارفهم ونفوذهم الاجتماعيّ من أجل الدرهم والدينار، أو المقام، أو لأجل الحسد، تحت اختيار المنافقين وأعداء الحقّ والفراعنة أمثال بني أميّة وبني العباس وسائر الطواغيت.

ويمكن معرفة أولئك العلماء من خلال أوصاف أشارت إليها الآيات محلّ البحث، فإنّهم ممّن نسي ربّه واتّبع هواه، وهم ذوو نزوات سخّروها للرذيلة بدل التوجّه نحو الله وخدمة خلقه، وبسبب هذا التسافل فقدوا كلّ شيء ووقعوا تحت سلطة الشيطان ووساوسه، فسهل بيعهم وشراؤهم، وهم كالكلاب المسعورة الّتي لا ترتوي أبداً، ولهذه الأمور ترك هؤلاء سبيل الحقيقة وضلّوا عن الطريق حتّى غدوا أئمّة الضلال.

ويجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

الفهرس